ضباب

بعبق الياسمين

ضباب بعبق الياسمين

رواية

بقلم/ شفاء العوير

الملتقى للنشر و التوزيع

اسم الكتاب : ضباب بعبق الياسمين

اسم المؤلف : شفاء العوير

تصميم الغلاف: سارة حسن

رقم الإيداع بدار الكتب : ٢٠٢١/٧٥٦٦

ISBN : 6-3-85873-977-978

•• جميع حقوق الطبع و النشر محفوظة للدار

ولا يجوز نقل او اقتباس أو اختزال أي جزء من الكتاب دون الرجوع إلى الناشر و الحصول على إذن خطي مسبق منه.

•• تنويه: المحتوى الأدبي هو مسئولية الكاتب بالكامل.

رئيس مجلس الإدارة :

حسام عزام

Moltaqapublishing@gmail.com

Tel: +20 109 901 6240

المقدمة

"يبدو الجواب من عنوانه"!

هكذا يقول المصريون في أمثالهم الشعبية، ومعهم الأديبة السورية العربية شفاء العوير في روايتها "ضباب بعبق الياسمين"- إذ تستفتح العمل القصصي بإهداء إلى أرواح من ماتوا يأساً ممن ما زالوا على قيد الحياة وعلى رأسهم النقاد والقراء!

تدور الرواية ببطء — بدون ملل! — بلا أحداث كبيرة تقريباً سوى خطاب ذاهب وخطاب آت، ولكن بينهما حكاية الحرية في مقابل السجن والسواء النفسي في مقابل اعتلال الروح تذكرنا شفاء (هكذا اسم المؤلفة!) بالصحة النفسية وبمعنى أن يعيش الإنسان في سلام كما تذكرنا بحلاوة الحرية في دنيا الله، والتذكرة عندها تتخذ منحى قاسياً فتضعنا مع السجين في زنزانته ومع المريضة على السرير الأبيض، وتتركنا نبكى على الحرية وعلى العافية التي ضاعت منا افراداً وجماعات ودولاً وأوطان. أسلوب الكاتبة شفاء في التذكرة قديم ولكنه ناجح للأسف! ولعلنا نرد عليها باقتباس ما قالته المريضة للسجين " لندع الذكريات نائمة اليوم؛ لأن إيقاظها سوف يكلفنا الكثير" بالفعل يا مؤلفتنا الرقيقة إن تحريك الذكريات سوف يكلفنا الكثير!

ربما من الأشياء التي ننصح بها المؤلفة الكبيرة في القادم من أعمالها أن تخفف من جرعة الشرح والتوضيح والإسهاب في الحكي تاركة الفرصة للقارئ ليستوعب ويستنتج ويستخلص الحكمة من مخزون كلماتها الجميلة المشحونة بالمعنى.

ولكننا نستلهم من رواية "ضباب بعبق الياسمين" ما قالته المؤلفة شفاء العوير لنا:" الفنان الحقيقي يستوحي لوحاته من أصغر شيء حتى لو كان رذاذ غبار". ولكن شفاء استوحت لوحتها السردية من ثنائية الحرية والسواء النفسي في مقابل الحبس والمرض النفسي.

وإن كان لي رجاء من القارئ فهو إلا يتلمس في رواية شفاء أي شفاء فهي تشخص ولا تعالج، تحكي ولا تفسر، فهي روائية وليست نبية، ولكنها رائعة.

ولأنها رائعة فيا لحظ القارئ وهو يسير معها في جنبات الرواية وأورقتها صاعدا هابطا حتى يغني معها وهي تقول على لسان ما في مختتم ما:

" مساكين بنضحك من البلوة

زي الديوك و الروح حلوة

سارقاها من السكين حموة

القاهرة في 6 أغسطس 2020

طه سيف الله

الناقد الحداثي

السجن جنات و نار وأنا المغامر و الغـمار

أنــا و الدجى والذكـريات مريـــرة والانتظار

ربـاه عـفـوك إن هـذا القلــب بالشكـوى يحار

لا أشتـكــي لسواك لو شكت الصدى يوم بحار

روحي طليق في الدنى والجسم يحكمه الإسار

لكنهـا أنــات مكــلـوم ويسبـقـــها اعــتــذار

إهداء

إلى أرواح أجدادي الذين حلموا يوما أن نجتمع في سماء وطننا الحبيب فماتوا حسرة على تفرقنا...

إلى روح جدتي التي بكت قبل وفاتها وحلمها أن نجتمع تحت سماء الوطن....

إلى جدتي التي ما زالت أنظارها تتجه إلى حيث أبقت قلبها وروحها هناك في الوطن...

إلى أبي وأمي... اللذين علمانا حب الوطن والتغني به دون أن نراه...

إلى بلدي الحبيب الذي ما زرته يوما، ولكني تعلمت حبه مع أول قطرة حليب سقيتها في هذه الدنيا...

إلى تلك الأرواح التي أوجعتهم الحياة يوما، فصار لذكرياته سجين

إلى أصحاب أنقى القلوب الذين يطلقون عليهم المرضى النفسية

إلى أرواحهم العذبة أهدي هذا الكتاب

شفاء العوير

بداية النهاية

في زاوية منعزلة بغرفة لا تكبر عن مترين في ثلاثة أمتار، ومن بين ذلك الظلام أستنشق الهواء بحزن كبير، هواء محمل برائحة رطوبة مزعجة ومؤذية للصحة، ولكن من سيهتم بصحته وما يضره أو يؤذيه وهو سجين في زنزانة لا قيمة له بها، إنهم ليسوا كأي سجناء؛ فهم سجناء سياسة، سجناء مغضوب عليهم، لا يبالي بأمرهم أحد، أسند رأسه للحائط وهو يتأمل رفقاء الزنزانة؛ أعمارهم متفاوتة وطبقاتهم أيضا، ما جمع بينهم هو حبهم للوطن، ومع مرور الأيام صاروا إخوة بعضهم لبعض ظهيرا، ومن وسط الظلام والضجيج الذي يملأ السجن صاح أحد الحراس: جهاد أحمد! رسالة.

رفع رأسه وهو ينظر في عيون الجميع مستغربا متسائلا: ممن سوف تكون هذه الرسالة؟ وهو منذ زمن لم يرسل له أحدهم برسالة أو حتى يزوره أي شخص كان، صاح الحارس بنفاذ صبر:

- جهاد تحرك وإلا اتلفتها.

قام على عجل وهو يهمس:

- لعل أحدهم تذكرني، يا رب يا رب اجعله خيرا.

وبهدوئه الذي تعود عليه كل من يعرفه مد يده ملتقطا الرسالة؛ ليعود لمكانه المفضل ناظرا للرسالة لوقت طويل بعيون حائرة متسائلة، متأملا العنوان المرسل منه "مدينة الضباب" يا للعجب فمن يعرفني في مدينة الضباب؟ وأنا أكاد لا أعرف أحدا في بلادي حتى أعرف أحدهم في بلاد بعيدة جدا عنها، بعد تأمل طال لوقت ليس بالقصير زفر الهواء من فمه مقررا أن يفتحها، لعل بها أجوبة على أسئلته، أو أنها تحمل في طياتها أملا مفقودا، وشرع يقرأها بصمت:

(السجين رقم 1981 السلام عليكم

كيف حالك؟

أعلم بأنك سوف تستهزئ بسؤالي فمن يسأل السجين عن حاله؟ وهو خلف القضبان وحيدا بلا أحد يؤنسه ولا يخفف عنه وحدته؟ ولكنه سؤال مجازي لابدأ بعده حديثي، أعلم يقينا أنك سوف تقول ممن هذه الرسالة؟ ومن المجنون الذي سوف يراسلني من مدينة الضباب؟ سوف أجيبك قائله إنها مجنونة وليس مجنونا ولا تتعجب فأنا فعلا مجنونة، لا تستغرب ولكني سجينة مثلك أقبع خلف أسوار كثيرة، ولكن سجني يختلف عن سجنك؛ فأنت سجين في أنفاق الظلم وعتمة السراديب وعفونة الدنيا من حولك، أما أنا فسجينة حيطان بيضاء وسرير مريح، سجينة الم يستوطن روحي ويأكل قلبي، سجينة هلاوس تكاد تقضي على ما تبقى من عقلي إن كان قد بقي هناك عقل، أنا يا صاحبي سجينة غرفة مليئة برائحة المعقمات والمنظفات، سجاني يلبس الأبيض ويطلقون على بعضهم ملائكة الرحمة، أي ملائكة هم وهم لا يفهمون ما يجول في عقلي وقلبي، ولا يعلمون كم تؤلمني إبرتهم حين يضعونها في جسمي يوميا، لا يعلمون كم تقتلني ابتسامتهم المجامِلة وكلامهم المنمق، أعتقد أنك أصبت بصدمة من كلامي غير المترابط وغير المفهوم، أنا باختصار سجينة في مستشفى الأمراض النفسية، أووه أكاد أرى نظرة الشفقة تطل من عينيك وأسمع همسك قائلا الحمد لله على نعمة العقل، لا تستغرب فقد مررت بهذه المواقف كثيرا، أتعلم لم يعد يؤثر بي حديثهم أو همساتهم، أنا الآن أعلم بأن الجنون في كثير من الأوقات نعمة، وأنا أحب نعمتي قدر كرهي لها.

سوف أكتفي اليوم بهذه الكلمات وسوف أكون ممتنة وسعيدة جدا إن حصلت على جواب رسالتي، ولا تنس إن قررت خوض هذه المغامرة المجنونة معي أن تذكر اسمك في رسالتك القادمة، ولا تخش شيئا؛ سوف تكتشف مع الوقت أجوبة اسئلتك.

بنفسج)

وحدي من يملك الدواء

هناك حيث مدينة الضباب - كما يطلقون عليها- وهي دائما ما كانت تطلق عليها مدينة الأحزان، فمن يزورها ولا يصاب بحزن يستوطن القلب، وكآبة تنهك الروح، من لم يمر بهذه التجربة المرة لم يزرها ولم يدخل إلى أعماق تلك المدينة، تأملت الدنيا من نافذة غرفتها نظرت حولها وهي تقول: منذ متى كانت هذه الغرفة غرفتي؟ رحم الله تلك الأيام حين كانت غرفتي أجمل من هذه مئة مرة، وبها كل ما يخطر على البال.

نفضت رأسها حتى لا تدخل بدوامة الكآبة مجددا، فهي تحاول جاهدة التغلب على حزنها بكل ما تملك من طاقة وصبر، تنهدت وهي تنظر للأفق: يا الله هل وصلت رسالتي لشخص يستحقها أم أنها وصلت ليد شخص لا يستحق؟

تعلم بنفسج بأن ما قامت به مجازفة كبيرة إن لم يصنفه البعض بالجنون، ولكن من يهتم فهي قد تعبت من لعب دور الفتاة المثالية العاقلة، وقد حان الوقت لتسمح لذلك الجنون الذي يسكنها منذ زمن أن يسيطر عليها ولو قليلا، تنهدت وهي تمشي على مهل متجهة إلى سريرها، محتضنة لعبتها التي على شكل خروف صغير إلى صدرها، وبدأت دموعها بالتساقط فلا أحد قد تحمل حزنها وألمها مثلما فعلت هذه اللعبة، لا أحد يتحمل أفكارها الغريبة سواها، فهي صديقتها في السراء والضراء، مسحت دموعها ورسمت أجمل ابتسامة حين سمعت أحدا يطرق باب غرفتها.

دخلت الممرضة وهي تقول: صباح الياسمين لياسمينة دمشق أتمنى أن تكوني بخير.

بنفسج: أنا بخير شكرا لكِ كيف حالك أنتِ؟

أجابتها الممرضة بابتسامة: بخير، شكرا لك.

بنفسج: ما هي أخبار طفلك الجميل؟

ابتسمت الممرضة وبدأت تسرد قصص طفلها على أسماع بنفسج، فهي محبوبة بين الممرضات بجمال ابتسامتها وروحها المميزة، تهتم بالجميع وتسأل عنهن وتستمع لقصصهن دون ملل، تجملها ابتسامتها التي لا تفارقها أبدا، وربما ما ساعدها على هذا

تخصصها بعلم النفس الذي أبدعت به جدا، فمن يراها من بعيد أو من قريب يتعجب مكوثها في المستشفى، ولكنها الحياة لا تصفو لأحد أبدا.

ابتسمت الممرضة بعد انتهائها من حكايات ابنها، لتقول لها وهي تلوح بظرف أبيض تحمله بين يديها: وصلتك اليوم رسالة من أحدهم وقد أمر الطبيب بأن نعطيها لك، ولكن بشرط أن تتناولي طعامك كاملا، فأنت منذ مدة لم تأكلي بشكل جيد.

ابتسمت بنفسج بحماس طفولي قائلة: أحضري ما شئت من الطعام وسوف أقضي عليه كاملا.

تعالت ضحكات الممرضة وهي تغادر قائلة: حسنا خمس دقائق وسوف يكون الطعام جاهزا.

انتهت بنفسج من طعامها على عجل والحماس يكاد يقضي عليها، فكم هي متشوقة لقراءة ما تحمله الرسالة من قصص وحكايات، فمنذ زمن لم تخاطب أحدهم ولم تقم بفعل مجنون يشبهها هي فقط،

وبعد مغادرة الممرضة سارعت لفتحها وهي تأمل أن تحمل لها بعضاً من رائحة بلادها البعيدة، بعضا من رائحة الياسمين ورائحة غائب لن يعود.

(بنفسج...

لا أعرف ما هي الكلمة المناسبة التي يجب أن تسبق اسمك، لذلك سوف أتركها فارغة ولندع الأيام تخبرنا بذلك، لقد سألت عن حالي وأجبتِ؛ فما هو حال من يسكن السجون وحيدا لا يؤنسه أحدا، ولا يشغله شيء سوى التأمل، ولكني يا بنفسج سعيد بهذا السجن فأنا قد سجنت لأني أحمل قضية أدافع عنها، بخلاف غيري من سُجنوا لأسباب يستحون حتى من ذكرها، يبدو لي من طريقة كتابتك بأنك لست مجنونة، بل تملكين عقلاً كبيراً فإياك أن تجعلي المرض يصيبك باليأس والإحباط، ولا تلتفتي لمن ينظر لك بعين الشفقة فهو أحق بشفقتك، فالمرض مهما كان مسماه يبقى مرضا، والمريض في معظم الأحيان أقوى من ألف ألف صحيح.

دعيني أخبرك شيئا: منذ زمن بعيد كانت لدي ابنه جميلة، طفلة مفعمة بالحياة والجمال ولكنها كانت تزوي أمام ناظري دون أن أقوى على فعل شيء لها، أتعلمين مما كانت

تعاني؟؟ كانت تعاني من فقدان أمها المبكر، راقبتها وهي أمام عيوني كيف امتص الحزن عافيتها وضحكتها وحيويتها لقد سرقها مني وهي على قيد الحياة، حتى تعبت روحها وما عاد جسدها يقوى على فراق امها الغالية، فماتت بعدها بسنة واحدة وتركتاني وحيدا أعاني الحزن والفراق، لكني كنت أقوى من الحزن وأقوى من الألم فلم أدع له مجالا ليمتص روحي، قاومته بكل الطرق حتى انتصرت عليه وها أنا كل يوم أدعو بأن يجمعني الله بهما في جنانه.

أووه يبدو بأنني سوف أرى نظرت الشفقة تطل من عينيك أنتِ الآن، لا عليك إنها قصة من الماضي لا أقول إني نسيت ابنتي فمن ذا ينسى جزء منه؟؟ ولكني الآن بألف خير، وقد تعايشت مع وجع الفراق والشوق بكل هدوء ورضا.

بالمناسبة اسمي جهاد وأنا أنتظر منك رسالة قادمة أتمنى أن تحمل شيئا عنك حتى أتمكن من أن أتعرف على صديقة الرسائل الجديدة)

كعادته ينظر للفراغ؛ فلا شيء حوله سوى الفراغ، وماذا قد تحمل الحياة له من بعد أن أخذت كل غالٍ؟؟ يتساءل دائما: هل الفراغ الذي يستوطن قلبه ينعكس على كل شيء حوله؟ فهو يرى المكان الضيق ومع العدد المهول للمساجين الذين يملئون المكان ولكنه فارغ، فأي فراغ هذا الذي تدور به حياته؟ أخرجه من أفكاره صوت الحارس من جديد وهو ينادي: جهاد أحمد! رسالة

نهض على عجل وبدأ يتجاوز المساجين بصمته الذي لا يفارقه أبدا، أخذ الرسالة وعاد إلى مكانه وكله شوق لقراءة هذه الرسالة، فالمغامرة الجديدة التي يعيشها داخل السجن تروق له كثيرا.

(جهاد

آه كم يحمل هذا الاسم من ذكريات مرة وصعبة، تذكرني بذاك الراحل الذي أتوق شوقا للقياه في الجنان، أتمنى أن يأتي يوم أتمكن من أن أخبرك به حكاية جهاد في حياتي، دعك الآن من ذكرياتي الحزينة ولأخبرك بعضا عني

اسمي بنفسج خالد، أبلغ من العمر ٢٨ عاما تخرجت من الجامعة بتخصص هندسة جينية، لا أرجوك لا تعتقد بأني ذكية لدرجة كبيرة، أنا تخرجت من الجامعة بشق الأنفس فلم يكن هذا حلمي أبدا، ولكني لم أجد غيره أمامي، فبعد أن عجزت عن تحقيق حلم راودني لسنوات طويلة وضاع مني كما تضيع الروح من الجسد صار علي أن أواسي نفسي بتخصص يحمل شيئا من رائحة حلمي، فما كان سبب اختياري للهندسة الجينية إلا بعضا من حلم بمعطف أبيض أرتديه لأساعد الأخرين، أعلم أنه ينتابك الفضول حول حلمي الذي ضاع مني وعدت لأتمسك به بعد ذلك، ببساطة كنت أحلم بدراسة الطب النفسي، وباء حلمي بالفشل حينها، ولكني وبكل إصرار قد عدت لأحققه بعد ذلك، فلقد كان شعاري "أن يأتي متأخرا أفضل من ألا يأتي" بعد تخرجي من الهندسة الجينية عملت لسنة واحدة وبعدها تركت العمل وعدت للجامعة لأحلق خلف حلمي بعد تخرجي من العلاج النفسي عملت لسنة واحدة، بعدها سافرت لبلاد الياسمين، وتدهورت حالتي النفسية بشكل كبير لأصل بعدها للمستشفى النفسي، أما هواياتي فهي القراءة والكتابة وكم أحلق بين كلمات الكُتَّاب وأستريح على ضفاف كتبهم؛

لأنهل منها الكثير، وأغوص في بحورهم أجمع لؤلؤ الكلمات وأعاود التحليق مجددا أبحث عن رحيق جديد.

أتعلم؟! دائما ما أشبه نفسي بعصفور هارب يتوق بشدة ليعود إلى عشه ذات يوم، ولكنه يوما بعد يوم يبتعد هاربا من عشه وكل آلامه التي تسكن به وكأنه يخاف إن عاد يغرق فيها للأبد.

الآن دعك مني وحدثني عن نفسك حدثني عن زوجتك وابنتك رحمهما الله، حدثني عن السجن والسجان.

بنفسج)

أشواق ينقصها العزم

منذ هربت من الدنيا لتحتمي بجدران المستشفى وهي ما زالت عالقة بذاك الشيء البعيد القريب بنفس الوقت، حيث الماضي يعيش بها ومعها، هي لا تهرب من الدنيا كما يظن الجميع؛ ولكنها أتت لتعيش مع ماضيها وتتعايش معه لتتمكن بعدها من مواجهة كل أوجاعها وتصديها بقوة وثبات، حاول الجميع معها لتخرج من هذا الحبس الاختياري حتى لو كان إلى حديقة المستشفى ولكنها ترفض مرة بعد مرة بعنادها المشهور وإصرارها الغريب على أن تخرج مهما صار، رفضت المغادرة وهي تتمسك بالعزلة الموجودة داخل أسوار المستشفى البارد، ومع هذا فالعيش هنا يقتلها والبعد عن أهلها يسبب لها اكتئاب لا نهاية له، أهلها الذين يزورونها بفترات متباعدة وبحسب أوامر طبيبها البغيض، لهذا فاليوم من أجمل أيام حياتها هنا تكاد تموت من فرط الفرح والبهجة، فلقيا الأهل قد اقترب فهم سوف يأتون اليوم لزيارتها حاملين معهم فرح وأمل تحتاجهما بشدة هذه الأيام.

نفضت عن رأسها أفكارها المتضاربة وهي تسمع صوت طرقات على باب غرفتها، رسمت تلك الابتسامة التي تخفي أطنان من الأوجاع والذكريات خلفها وهي تسمح للطارق بالدخول، ومن سوف يكون الطارق سوى الممرضة تعلمها بوصول أهلها، نهضت وهي ترسم أجمل ابتسامة على محياها، وسابقت الرياح لتصل إلى حيث أهلها مرتمية بحضن امها والدموع تملأ عينيها شوقا وحنينا، قبلت رأس والدها وحضنت أخاها الكبير الذي يحمل أصغر أفراد عائلتها الذي يبلغ من العمر عاما واحدا، ما أجمل هذا المنظر أخوها الذي شارف على الثلاثين عاما يحمل أخاها البالغ عاما واحدا فقط.

بنفسج: كيف حالكم، أكاد أموت شوقا للقائكم؟

ابتسم أبوها ابتسامة خفيفة وهو يجيب: كلنا بخير، كيف حالك أنتِ؟

نظرت لعينيه ولكم الحزن الذي يستوطن داخلهما وهي تحاول أن ترسم أفضل ابتسامة لديها: أنا بخير أبي لا تقلق على ابنتك كل شيء هنا ممتاز، أكاد لا أشعر بأني لست في بيتنا.

قالت أمها بحزن وهي تتأمل جدران الصالة الباردة: هل تشبهين برودة هذه الجدران بدفء منزلنا الجميل، متى سوف تخرجين من هنا يا ابنتي؟

أجابتها بإشراق: أمي أنا أعلم أن لا شيء كجمال بيتنا ودفء حضنك ولكني سعيدة هنا وأنا أتلقى العلاج المناسب، سوف أكون بخير قريبا لا تقلقي علي أبدا، أما عن موعد خروجي فما زال الوقت باكرا على هذا الحديث.

نظر إليها أخوها الأكبر بعتب وهو يقول: تتماثلين للشفاء وأنتِ ما زلت رافضة لخروجك من المستشفى حتى ولو على حديقتها، أي شفاء هذا يا بنفسج الذي تتحدثين عنه؟

أنزلت رأسها أرضا وصوتها يمتلئ وجعا: أنا أحاول يا فارس فقط دعوني أتناسى ومتى ما شعرت بأني أستطيع أن أتنفس هواء لا يحمل رائحته ولا يذكرني به سوف أخرج أعدكم بهذا.

حل صمت ثقيل على الغرفة فهذه الصبية الصغيرة المشرقة على الدوام والمليئة بطاقة محببة تبهج من حولها تملك من الحزن أطنانا كثيرة ربما يعجز عن حملها أقوى الرجال، وها هي تمضي وتحاول أن تبتسم تقاتل من أجل الجميع وتموت بصمت، كلهم يعلمون بأنها حين قررت المكوث هنا كانت لأجل أن تريحهم من همها، فهي تدرك بأن حزنها الذي يتستر معظم الوقت يخرج ليلا، وقد كان أهلها يسمعونه ليلا، لهذا فالبعد أريح لهم ولها أيضا لتتمكن من أن تعيش حزنها بكامل حريتها، وبعد هذا الحديث غيروا مجرى أحاديثهم وهم يخبرونها عن كل شيء ويخلقوا معها جوا من المرح أضاف إليه جهاد الصغير بعضا من شقاوة الصغار، بعد خروجهم جاءت الممرضة وهي تبتسم لتخبرها بأن هناك رسالة أتت إليها أخذتها بسعادة وهي متشوقة لقراءتها.

(بنفسج الصغيرة

أي حزن يتستر خلف كلماتك المنمقة والبريئة، أتعلمين كم أتوق لأقرأ بعضا من كتاباتك التي أنا على يقين بأنها سوف تكون جميلة كروحك النقية، فأنت برسائلك وكلماتك العادية أوضحت بأنك تملكين قلما مبدعا فكيف إن كان بشعر أو خاطرة؟ والآن حدثيني عن سبب عدم دخولك للتخصص من أول مرة؟ وما الذي جعلك تعودين لدراستها من جديد بعد هذا؟ وما الذي جعلك تتخلين عن حلم رائع لتقبلي ببعض من رائحته تواسين به نفسك ؟؟؟

دعيني الآن أعرفك عن نفسي قليلا فهذا حقك بعد الآن يا صديقة الورق

أنا جهاد أحمد بلغت من الكبر عتيا، فها أنا ذا أقف على أعتاب الخمسين، درست في الجامعة الطب الذي كان حلم والداي فأنا وحيدهما، تزوجت بعد الجامعة مباشرة لأرزق بفتاة كأنها القمر اسميتها ياسمين، زوجتي كانت معلمة لها أسلوبها الخاص بالحياة، كانت تنظر لكل شيء بجمال وتفاؤل، كانت تخرج من المشكلة قصة جميلة تجعلك تعيشينها بكل هدوء وراحة، كما الورد كانت تتفتح كل يوم ولم يكن يشرق نهاري بدونها، حتى بدأ يظهر عليها بعض من علامات التعب وبدأت تذبل يوما بعد يوم، ولم نكن نعلم ما بها فقد كانت حينا تشكو من صداع لا يقاوم، ومرة أخرى كانت تشعر بالكسل وعدم القدرة على فعل شيء، وأحيانا كانت تنسى كل شيء حولها، لم أترك حينها طبيبا أو مستشفى ولم أخذها إليها، لففت بها البلد كله ولم يعلم أحد ما بها ومما تشكو، وقد جاء تشخيص حالتها متأخرا جدا إذ أنها كانت تعاني من ورم في المخ من الصعب اكتشافه، وقد اكتشفه طبيب كان يجلس معنا في الحافلة يوما، ذاك الطبيب لم يكن يعمل في مجاله فقد منع من ممارسة الطب بسبب آرائه السياسية ومواقفه ضد النظام، حين رآها تعاني من الصداع وقد قل تركيزها وقد وجدت صعوبة في الرؤية أتى واختفت بثواني، قال لي: يا أخي أنا طبيب قد درست الطب لسنوات في الخارج وتخصصت في الأورام وأعراضها، وحتى لو أني لم أمارس الطب لسنوات ولكني ما زلت أعيش داخل الشيء الوحيد الذي أحببت في هذه الدنيا، زوجتك يا أخي تعاني من ورم في المخ إن لم أكن مخطئا خذها إلى المستشفى، هناك طبيب اسمه حمزة الخالد أخصائي أورام قل له بأنك أتيت عن طريقي، وأني أشك بأن هناك ورما في الرأس، وهو سوف يفعل اللازم ويقوم بما عليه القيام به، اسودت الدنيا يومها بعيوني وأنا

أسمع كلام هذا الرجل الطيب، فلقد كانت زوجتي هي كل حياتي وسبب سعادتي فكيف يقول هذا الرجل بأن لديها ورما في الرأس، وأنا كطبيب كنت أعلم يقينا بأن ورما في الدماغ أمر ليس بهين ولا سهل، لهذا على عجل أخذتها للطبيب وقلت له كل ما حدث معي، طلب لها عدت فحوصات وصور، كان أسبوعا مليئا بالتعب والإرهاق، أكاد لا أعرف للنوم طريقا فيه، حتى جاءت النتيجة كما توقعها ذاك الطبيب ولكنها جاءت متأخرة جدا، جاءت حين ما عاد بمقدورنا فعل شيء سوى مراقبتها وهي تغادر الحياة أمامنا بصمت ووجع، كانت مراقبتها وهي تتمسك بأطراف الحياة من أجلي ومن أجل ابنتها بابتسامة باهتة، وكلمات عابرة تنسى معظم الوقت أن تكملها، كنت أنظر إليها كل ليلة بعد أن تغط في سبات عميق، وأهمس لنفسي هذه لم تعد زوجتي بل هي نسخة باهتة ميتة عنها، هذه الطيبة هي بقايا زوجة قد كانت يوما مفعمة بالحياة.

سوف أتوقف اليوم هنا وسأترك الحديث عن ياسمينتي في المرة القادمة فأنتِ اليوم قد لعبتي بذاكرتي بطريقه أعادت وجع تلك الأيام التي عشتها وكأني أعيشها الآن من جديد، يا صديقة الورق سوف أترك لك المساحة لتتحدثي عن أي شيء تريدين فأنا لن أقيدك بشيء معين من خلال سؤالي.

جهاد)

اليوم كان متعبا منذ بدايته فهو يوم الاستحمام كما يطلق عليه السجانون، ولكنه يوم التعذيب الجماعي كما يطلق عليه السجناء فهم منذ الصباح الباكر لا يرتدون إلا ما يستر عوراتهم ويقفون في مكان بارد تكاد عظامهم تتجمد من شدة برودته، كل هذا لم يكن يهم، فهم قد تعودوا على البرد حتى صار جزءا من حياتهم، ولكن ما يخافون منه بشدة حلقة التعذيب التي سوف ينالونها بعد قليل، هي حفلة لا يتحملها أحد ومع هذا تجدهم فرحين بهذا اليوم الذي يأتي مرة كل أسبوعين أو شهر، فهم سوف يغتسلون مزيحين عنهم عفونة المكان ورائحته النتنة، وصل دور مهاجعهم وقد كان معهم رجلا كبيرا بالعمر ينادونه الجميع هنا بالجد، هذا الجد الذي كبر حتى ما عاد جسده يحتمل الضرب أو التعذيب لهذا كان كل من بالمهجع يتناوبون كل مرة على حمايته، واليوم كان دور جهاد بتلقي الضرب بدلا عنه.

اقترب منه جهاد قائلا: جدي تعال بجواري فأنا سوف أتلقى عنك الضربات كلها فقط أمشي أمامي.

نظر إليه بابتسامة وهو يقول: بني لا تفعل هذا سوف تتعاقب بشده إن كشف أمرك، وهذا سوف يشعرني بالوجع وتأنيب الضمير، دعوني بعد الآن لأتحمل ما سوف يصيبني من ضربات مثلكم.

لم يهتم جهاد لقوله فهذا الحديث يقام في كل مرة وسحبه بسرعة أمامه يحمي ضعف جسده بقوته، هذا الضعف الذي وصل لدرجة بأن بانت عظامه، وصار كأنه هيكل عظمي ملفوف بجلد بسيط، لقد كبر الجد كثيرا فما عاد جسده كالسابق، كبر بين جدران السجن كبر معهم ولأجلهم، وقد حان دورهم ليضحوا لأجله بالقليل فهذا الرجل يعتبر أبا وجدا لكل الموجودين في هذا المهجع، خرجوا ليجدوا الجنود يقفون صفين عن اليمين والشمال يضربونهم بالسوط كما العبيد حتى وصلوا إلى الحمامات وأخذ كل واحد منهم حماما وقد كان لا يفصل الحمام عن الحمام الآخر إلا ستائر مهترئة، استحموا بماء بارد حتى اقشعرت جلودهم، وخرجوا خلال دقيقتين لا أكثر عائدين لمهاجعهم بنفس الطريقة المهينة القاسية، كان جهاد يحمي الجلد من ضربات السوط فيتلقاها في جسده بدلا عنه، خشية عليه بأن يصيبه مكروه أو يهلك جسده الهزيل، إلى أنه كشف أمره في الثواني الأخيرة فأخذوه إلى

غرفة التعذيب وكانت بحق حفلة لا مثيل لها أبدا، فالسجان الذي يقضي يومه كله منتظرا شيئا يغير رتابة الجو يسعده التسلي بأحدهم حتى يقتل حالة الملل التي يعيشها والضغط الذي يفتك به، فهم يتفننون بتعذيبهم باستخدام الصعق بالكهرباء وإطفاء أعواد السجائر بجسده، أو الضرب بالسوط أو بالكهرباء وغيرها من أساليب التعذيب الشديدة والمتنوعة، حتى يغمى على السجين فيعيدوه إلى زنزانته ملقين به وكأنه كيس قمامة لا روح وجسد.

بعد حفلة التعذيب التي تعرض لها جهاد أغمي عليه ليحمله أحد السجانين إلى المهجع راميا به هناك دون اهتمام وكأنه كيس قمامة لا قيمة له، حين استيقظ وجد السجناء حوله يهتمون به فأحدهم يغسل وجهه بالماء، وأخر يمسح جسده بماء بارد، وأحدهم يضمد جراحه محاولا إيقاف النزيف، وقد كان الجد يجلس عند رأسه يبكي وهو يلوم نفسه داعيا له بالشفاء العاجل، لم ينظر لأحدهم فقد اتجهت نظراته عند الرجل المسكين الذي يمسك بيده قائلا له:-

لا تبك يا جدي، والله لو كنت أحدا أخر لفعلت معه نفس الشيء، فلا تهتم بنا فنحن ما زلنا شباب وحق علينا أن نحميكم من بطشهم يا جدي.

حينها سمعوا أحد الحراس ينادي: جهاد هل استيقظت أم أنك ما زلت تعاني من بطولاتك العظيمة أيها الفدائي؟ لقد وصلتك رسالة هل تريدها أم ألقي بها بأقرب سلة مهملات؟

تبرع أحد المساجين بحملها إليه، ليعتدل هو بسعادة متحمسا لقراءة ما تحملها الرسالة من أحرف

(فستان أبيض وطرحة
كان أجمل أحلامنا
كم رسمنا لهذا اليوم يا قطعة من قلبي؟
أن تمسكي باقة الورد وفارسك بجوارك
يبتسم بزهو وفرح
فقد نال أغلى الجواهر
وأنا التي كنت أحلم
أن أمشي خلفك، ابتسم لك

أشجعك بصمت و أرقص فرحا بك

أن أوصيه عليك ألفا

وأقول له أنه أخذ الروح

وأني سوف أمزقه إن تجرأ وأحزنك

كم دافعتِ عنه قبل أن تعرفيه

وكم ناكفتك بهذا الفارس المجهول

حتى ما عاد مجهولا

إذ أنه أتى، وسوف تزفين إليه عروسا

عروسا كسراج الليل

تنير عتمة قلبه

كوني سعيدة يا أغلى من العيون

جهاد

ربما تستغرب ما كتبته ولكنك من طلب أن يقرأ وأنا قد كتبت ما يدور في قلبي من وجع وحكايات، بعد أسابيع قليلة سوف تزف أختي عروسا، سوف ترتدي بياضها وتمسك باقتها لتتراقص على أنغام أغانيها سعادة وبهجة، وأنا سوف أجلس هنا وحدي لا أقوى على الحضور ولا يقوى قلبي على المشاركة من عدمها فيلتهمه الحزن واليأس، فما الذي أوصلني الى هنا يا ترى؟ فكم كنت أتوق شوقا لرؤياها ومشاركتها هذه اللحظات الجميلة، ولكن خوفي من المغادرة والمواجهة قد تغلب علي لقد خسرت المعركة مجددا وسوف يتغلب على الحزن من جديد ليعلن انتصاره علي مرة أخرى.

دعك الآن من هذا الحزن، ولأخبرك لماذا لم أحقق حلمي؟ ببساطة وبدون تعددات وكلمات كبيرة ومطولة لا فائدة منها، مجتمعنا يا جهاد مهما تطور وتعلم سوف يبقى مجتمعا ينقصه الكثير ليتطور ويتغير، أتعلم لماذا؟ لأن أفكارهم لم تتغير يوما، فهم ببساطة ما زالوا يطلقون على الطبيب النفسي ذاك الطبيب الذي يتعب ويسهر لأجلهم بـ "طبيب المجانين"، نعم، لا تستغرب فمهما تطور المجتمع وتغير الزمن تبقى الأفكار ثابتة على الدوام تتوارثها الأجيال

جيلا بعد جيل، وهكذا ومنذ أخبرتهم بحلمي عارضوا أن أتعامل مع مجانين خوفا علي فكيف لي أن أقضي سنوات عمري أدرس حالاتهم وكيفية علاج أناس لا أمل منهم؟ وكم مرة قالوا سوف ينتهي بك الحال داخل مستشفى المجانين تتعالجين من كل ما درستيه بعد الكم الهائل من المجانين الذين سوف تقرئين عنهم وتتعاملين معهم، أتعلم يا جهاد ما المضحك بالأمر؟ أنا اليوم أجلس هنا في مستشفى المجانين على حد قولهم، ولكن بدون أن يعلموا بأني قد درست عنهم أو اختصصت بهم، يا عزيزي ما زال علينا العيش طويلا حتى نرى مجتمعنا يؤمن بأن المرض النفسي مثله مثل العضوي يصيب الإنسان ويسيطر على قلبه وروحه، هو فقط يحتاج لطبيب يساعده ليمسح عنه الوجع ويعالج روحه، فكم شبهت العلاج النفسي بطبيب يجري جراحات تستغرق أشهرا لتنجح، جراحات تحتاج صبرا وعملا مطولا حتى يتم استئصال كل وجع يسكنه من جذوره، كم يؤسفني أن هذا الطبيب العظيم الذي يتعامل مع مرض غير ملموس لأنه مرض في الروح وكله عبارة عن حالات متشابهة مختلفة، كل حالة عليك أن تدرسها وقتا طويلا لتفهمها، ولكنه بالنهاية لا يكافئ أو يؤخذ على محمل الجد، بل يسمع من النقد والاستهزاء الكثير والكثير، لهذا كان قراري بأن أعود لأدرس العلاج النفسي بعد تخرجي من الجامعة بسنة واحدة، دون أن يعلم أحد من مجتمعي دراستها، وتخرجت منها بعلامات عالية لأعمل بها سنة واحدة قبل أن يحصل ما يحصل وأجد نفسي الآن مريضة في مستشفى كان حلمي أن أعمل بها يوما.

جهاد قصتك قد أدمت قلبي، فبلادنا كما وصفتها أنت قاسية جدا على أهلها المخلصين المضحين في سبيلها، فالعالم فيها لا ينال مساحة ليثبت ذاته، والطبيب لا يمنح الثقة، وحتى العامل لا يعطى المشروع ليبنيه، والأصعب أن حتى عامل النظافة لا يعطى مكنسة لينظف بها الشوارع إن لم يعطي الاحترام والتبجيل لحكامنا وأنظمتنا، ألم ينادي بتبجيل الحاكم وأسرته وذريته كلها، فهذا الحاكم قد نصب نفسه إلها علينا حتى لو كان فاسدا أو عاث بأرضنا الفساد، علينا أن نشد على يديه ونهتف له على الدوام عاش عاش، لا تعتقد بأن بعد كل هذه السنوات الطويلة والصراعات التي عاشتها أوطاننا العربية بأن هناك شيئاً قد تغير، لا يا جهاد فبلادنا الآن في قمة فسادها وقد صار الفساد فيها أقسى وأصعب وأشد

انتهاكا للأرواح، لا تظن يا رفيق الورق والوجع بأني سوف أواسيك بكلمات بسيطة لن تغير من الحقيقة شيء، وأني سوف أقول لك أصبر واثبت فأنت أهل لذلك، أنا فقط سوف أقول لن يشعر أحد بألمك غيرك، فابك متى احتجت لذلك واصرخ متى ما أردت أن تسمع العالم صوت ألمك، واسمح لنفسك بعيش الوجع لتتعافى، اصرخ إن أردت واهمس شوقا إن كنت تحتاج، افعل كل شيء فصدقني الزمن مهما مر لن يمسح وجع فراقهم أبدا، فقط عليك التعايش مع هذا الوجع وتتعلم كيف يمكنك أن تخرجه دون أن تنهار ذات وقت.

بنفسج)

تقف تنظر من النافذة فهذا كل ما تستطيع فعله، النظر إلى الخارج بعيون حزينة متألمة متأملة بأن تتمكن يوما من التغلب على هذا الوجع، والخروج مجددا للفضاء الرحب، ولكن الخارج يحمل بين طياته آلاما كثيرة، يحمل وحوشا على شكل بشر، يحمل نفوسا مريضة، وأرواحا ملوثة، يحمل وجوها مبتسمة بود وفي يدها سكين تطعن من الخلف، كانت تتخيل أختها بفستان زفافها عروسا ليست كأي عروس، فبعد قليل سوف يبدأ العرس الذي حلمت به لسنوات، وها هي تلتفت للسرير الذي وضعت عليه فستانها ذاك الذي خاطته أختها لأجلها كما حلمتا يوما، وكلها أمل أن ترتديه وتأتي فقط لتكتمل فرحتها كما قالت لها حين أحضرته لها بنفسها، وكم تمنت لو تخرج من هنا لتحضر عرس أختها الوحيدة ولكنها تخشى النظر بعيون الناس ومواجهة الواقع، فهي أضعف من هذا بكثير وأبسط من أن تتألم من نظرات الشفقة التي سوف تلمحها، وأكثر ما يحزنها أنه قد مر أكثر من أسبوعين على إرسالها الرسالة لجهاد ولم يصلها الرد بعد، هل حدث له مكروه؟ أم أن الرسالة لم تصله؟ ربما منعت من قبل إدارة السجن؟ أو ربما ضاعت في الطريق؟ يالله ما هذه الحيرة؟ ولما تعلقت بجهاد هذا التعلق؟ تشعر بأن هناك شيئاً غريباً يربطها به، حدسها وقلبها يخبرانها بأن هناك ما سوف يحدث بقصتها مع جهاد، شيء سوف يغير الكثير، ربما ليس بحياتها ربما بحياته وربما بحياتهما معا، من يعلم؟ ولكن هناك شيء سوف يحدث بكل تأكيد، وها هي تنتظر الوقت ليمضي فربما يجيب على تساؤلاتها كلها، استيقظت من أفكارها على صوت طرقات على الباب، حاولت أن ترسم ابتسامة سريعة وهي تأذن لمن بالباب بالدخول؛ ليطل وجه الممرضة الشابة من خلفه وهي تقول لها: لقد وصلتك هذا الصباح رسالة لم يكن الطبيب ليقبل بأن يعطيها لك لو لم ير حالتك الصامتة المتباعدة منذ عدة أيام، لهذا سمح لنا بأن نعطيها لك فهو قد رأى تأثير هذه الرسائل عليك يا جميلة القسمات، خذيها يا فتاة عسى أن تخرجك من حالتك هذه وتعيدك كما كنت مفعمة بالمحبة والعطاء مفعمة بالحياة حتى لو كان تمثيلا منك.

ابتسمت بشكر ولهفة وهي تقول: لست حزينة وليس بي شيء، أنا فقط أتمنى لأختي السعادة بيوم كهذا، ويحزنني أن أعلم بأن سعادتها ناقصة بسببي، لا تظني بأني لا أشعر بها وبأهلي، ولكنها الحياة لا تعطينا دائما ما نريد.

صمتت الممرضة وهي تغادر الغرفة فلا فائدة من الحديث وقد استنزفوا كل محاولاتهم لجعلها تخرج اليوم حتى لو لساعات قليلة تحضر عرس أختها وتعود، ولكنها لم توافق مع كل الإنكسار واللهفة التي تحملهما عيونها، هناك شيء لم يعرفه أحد يمنعها من المغادرة لتشارك أختها وأهلها فرحة كهذه.

جلست على سريرها بسعادة وهي تحمل رسالتها بابتسامة، من يعرف فيها بنفسج يتأكد بأنها ناقصة، ينقصها الصدق

(بنفسج

يا ذات الروح المقاتلة بصمت، يا ذات القلب المقاتل بصمت وهدوء ورضا، اسمحي لي بأن أقول لك قبل أن تقرأي رسالتي هذه سوف أطلب منك شيئا واحدا فقط تخيليه بقلبك الأبيض وروحك النقية، تخيليه بكل صدق يسكن قلبك وكل حب تمتلكها روحك، تخيلي يا صغيرة بأن اليوم هو عرسك وأنك استيقظتِ باكرا حتى تتجهزي ليومك هذا، يومك الذي حلمتي به منذ الصغر، يوم تعلمين كما أعلم بأنه حلم كل فتاة منذ نعومة أظافرها، وهذا الحلم يا صغيرتي لا يخصك وحدك بل يخص كل أفراد أسرتك، فهذا حلم والديك منذ تكونتي جنينا في رحم أمك، وحلم أختك منذ بدأتما تكبران سويا وتفهما الحياة معا، وحلم أخيك الشاب بأن يراك ملكة متوجة على عرش بيتك وفي قلب حبيبك، ولكنك حين استيقظتي بحثتي في عيونك عن أهم شخص ليساعدك ويدعمك ليساندك بهذا اليوم المميز بصمته المتفهم وحبه غير المشروط ولكنك لم تجديه، ارتديتي فستانك الأبيض وتزينتي بتاجك المرصع بالورود والياسمين وقد صرتي مستعدة لتحولي الحلم لحقيقة، أخبريني من سوف تتمنين أن يكون في جوارك؟ من سوف تحلمين بأن يكون حارسك الخاص؟ يرقيك من الحسد ويعطرك بعطر المحبة؟ ألن تتمنى وجود أختك الغالية بجوارك؟ أنت لا تريدين منها أن تفعل الكثير، أنت تريدين أن تبتسم لك وتخبرك بأنك الأجمل في هذه الدنيا، وأن كل شيء سوف يكون بخير،

وأن كل شيء سوف يكون أفضل مما تمنيتي، أنظري أمامك الآن تخيلي عيون أختك أمامك تعمقي بعيونها ماذا سوف تجدين؟ سوف تجدين فرحتها ناقصة وهي تتلفت حولها باحثة عنكِ فلا تجدك بجوارها، هي أيضا لا تريد شيئا منك، هي فقط تريدك أن تكوني هناك حيث تمنيتِ وتمنت، انظري في عيونها جيدا سوف تلمحين الإنكسار والحزن، انظري في عيون أمك وأبيك وتأملي الوجع الذي يحاولان إخفاءه عن أختك حتى لا يقتلون يومها المميز هذا، الآن الخيار لك إن ذهبتِ أو لا، ولكن إياك وأن تفكري بنظرة الشفقة التي سوف تطل من عيون من حولك لأي سبب أجهله أنا، وأنها سوف تكون سبب أذية لأهلك، فأهلك يا غاليتي عند عدم حضورك سوف يتألمون مرتين، لأنك إن توقعت بأن غيابك سوف يمنع تلك النظرة فأنت مخطئة، لأن أهلك اليوم سوف يتحملون نظرات من حولهم وشماتتهم وألم عدم حضورك، ولتعلمي جيدا سوف يكون ألم غيابك قاسيا أكثر، وبالذات وهم يعلمون بأن سبب غيابك هو أنك تصارعين وجعك وألمك وحيدة وبعيدة عنهم،

يا صغيرة ما سوف يخفف عن أهلك نظرة الشفقة بعيون من حولهم، وما سوف يمحي الغصة الساكنة روحهم هو وجودك حولهم لا اختبائك في مستشفى جدرانها باردة خالية من دفء الحياة.

والآن سوف أدع القرار لك إن كنتِ سوف تذهبين لتكوني بجوار أهلك كما كانوا هم دوما بجوارك في لحظات فرحك وحزنك أم لا، إن قررتي أن تذهبي فدعي رسالتي لوقت آخر فلا تسمحي لشيء أن ينقص من فرحتك، وإن كنت لن تذهبي فأيضا اغلقيها ولا تفتحيها حتى يذوب الحزن من قلبك فهذا الحزن يكفيك هذه المرة فلا تثقلي على نفسك أكثر...)

وحقا ها هي تغلق الرسالة وتمسح دموعها بصمت وهي تتخيل كل كلمة قالها جهاد، لقد فهم مما هي خائفة في حين جهل الكل سبب خوفها، فهي لم تكن تخاف على نفسها من الخروج أو مواجهة العالم، هي كانت تخشى على أهلها نظرات سوف توجه لها ويحتملونها هم بصمت من أجلها، فقط سوف يبتلعون الخناجر ويمضون متظاهرين بالفرح، ولكن كيف نسيت ذاك الحزن الذي سوف يسكنهم لعدم حضورها، ونظرات الشفقة والشماتة التي سوف يحتملونها ؟؟ كيف تطعنهم بسكينين؟؟ بينما هي تجلس هنا مختبئة خلف جدران المستشفى

تحتمي بها من خناجر سوف تصيب أهلها، كيف تفعلها وهي التي ما اعتادت الاختباء يوما ولا الهروب أبدا؟ قامت مسرعة تنظر للساعة في يدها لقد وصلت رسالة جهاد في يوم عرس أختها لقد تأخرت لسبب تجهله ولكنها الآن صارت متأكدة بأن سبب تأخرها خيرة اختارها الله لها حتى تخرج وتكون بجوار أهلها في يوم كهذا، أسرعت إلى الحمام لتأخذ حماما ساخنا يكون سببا في تهدئة أعصابها، وقبل دخولها لم تنس أن تفتح باب غرفتها وهي تصرخ بمرح واستعجال: من يريد الحصول على شرف تزيين أخت العروس الجميلة فعليه أن يأتي إلى هنا خلال عشر دقائق لينال هذا الشرف العظيم، وعلى إحداكن أن تسرع لتخبر الطبيب فأنا لن أنتظر كثيرا ليضيع الوقت.

ابتسمت الممرضات بفرح فقد كانوا يحومون حول غرفتها منتظرين تغيير رأيها أو انهيارها، وقد غادرت إحداهن على عجل لتبلغ الطبيب برأي بنفسج الجديد بينما بنفسج عادت إلى غرفتها وهي تحاول الاستعجال لتكون جاهزة على الوقت فهي لا تريد التأخر أكثر مما تأخرت.

بعد مضي ساعة كانت بنفسج تقف أمام باب قاعة الأفراح، جسدها يرتجف من تضارب المشاعر المختلفة، فاليوم للمرة الأولى تخرج من المستشفى منذ دخولها إليها أي منذ ما يقارب العام، وهذا الخروج لم يكن خروجا عاديا فهي تخرج لعرس أختها، وهذا يعني قاعة مليئة بالمدعوين قاعة بها عدد هائل من البشر، فتحت الباب بهدوء وهي تجاهد لرسم أجمل ابتسامة على شفتيها؛ محاولة ألا يظهر توترها وقلقها؛ محاولة إخفاء مخاوفها في داخلها لتزرعها في قلبها مغلقة عليهم في دهاليز روحها، حدثت نفسها قائلة: من أجل أسرتك يا بنفسج من أجلهم فقط كوني قوية، توجهت كل الأنظار إليها معتقدين أن العروس قد جاءت، بينما هي تنفست الصعداء إذ أن الزفة لم تفتها وسوف تحقق حلم أختها بأن تكون معها، تقدمت بهدوء يتناسب مع اطلالتها الجميلة البسيطة إلى حيث تقف أمها لتقبل رأسها، وهي تلمح دمعة فارة من عيونها؛ دمعة سعادة بقدومها مسحتها بنفسج دون كلام قالت الأم:- أسعدك الله يا ابنتي كما أسعدتني بقدومك الذي لا مثيل له عندي، أسعدك الله وأراح قلبك يا قطعة من القلب أنت.

ابتسمت بنفسج وهي تقول: لم أكن لأضيع عليك فرحة هذا اليوم يا أمي، وما كنت لأكون غصة في قلوبكم في يوم بهيج، فأنا سوف أبقى إلى جوارك ما حييت، فقط أحتاج القليل من الوقت امنحيني القليل من الوقت يا تاج رأسي وسوف يتغير الكثير بعدها.

ابتسمت أمها وهي تدعو لها وتحثها على السلام على خالاتها وبناتهن، ليضيع الوقت بعدها وهي تسلم على تلك وتناكف تلك وتحاول جاهدة ألا تنظر في عيون المعازيم، كلهم هنا يعلمون ما عانت في الأيام الماضية ولكنهم يجهلون التفاصيل الكاملة للقصة، وهي تعلم كم يكادون يموتون فضولا ليعلموا كل التفاصيل، ولكنها أبدا لن تعطيهم المجال ليسألوا، فأحدا لن يفهم حزنها، ولا يحق لأحد أن يشاركها لحظاتها الخاصة تلك، لحظاتها التي أبت أن تشاركها مع طبيبها ومعالجها النفسي هل سوف تشاركها مع مجتمع لا يفهم شيء سوى النقد والشماتة؟ نظرت إلى حيث تلك الطاولة، إنها طاولة الشخصيات المقربة للعروس، يا الله كم أسعدها أن تجد صديقاتها على تلك الطاولة، مسحت دمعة التأثر فهي تعلم كم تحبها أختها ولكنها اليوم رأت كم تفتقدها، يا الله ماذا فعلت حين تركتها تصارع الدنيا وحيدة فهي وأختها جمعتهما علاقة فريدة لا مثيل لها ولا يفهم عمقها سواهما، ابتسمت وهي تحتضن صديقاتها وتسألهن عن أخبارهن، لم يبق شيء على حاله، كل شيء قد تغير؛ فتلك تزوجت والأخرى أصبحت أما وتلك اليوم تستعد لتنال شهادة الدكتوراه، انطفأت الأضواء إعلانا بقدوم العروس سارعت إلى أمها وهي تترجاها بعيونها أن تسمح لها لتكون بجوارها بدلا عنها وأمها لم تخذلها كما لم تفعل يوما، فابتعدت لتقف في بداية الصالة سامحة لابنتها أن تستقبل أختها.

سعادة أختها بقدومها كانت البلسم الشافي من أحاديث الحضور الجانبية، ومن همزاتهم التي تجاهلتها بقوة وثبات فهذا اليوم خصصته لسعادة أسرتها حتى لو كان على حساب نفسها، سوف تصم أذنيها عن كل ما يقولونه مع علمها بمحاولاتهم عن قصد إسماعها كلماتهم، ولكنها لم تبال وهي ترسم على وجهها ابتسامة الجاهل غير السامع لشيء، لتسير خلف أختها لتكتمل فرحتها بحضور باقي أفراد عائلتها وتنتهي الليلة كما حلموا لسنوات، وها هي تعود إلى المستشفى وتكاد تموت شوقا لقراءة باقي رسالة جهاد.

(صغيرتي

أولا شكرا لك شكرا بحجم السماء على كلماتك المشجعة وكأنك تعلمين بأن أي مواساة لن تجدي نفعا، نعم فأنا لا أحتاج أحدا يخبرني عن أجر الصبر أو عن كيفيته أنا أحتاج أن أبكي، أن أهمس بمدى وجعي لأعالج نفسي بنفسي، فأحدنا لا يحتاج بضع كلمات يحفظها ليقولها له شخص محاولا التخفيف عنه، بل هو يحتاج الى كتف يبكي عليه وآذان تسمع له دون كلام، يحتاج شخص يطبطب عليه دون نصائح هو يريد من يمتص حزنه بصمت وهدوء لا من يزيده باللوم والعتب.

والآن اسمحي لي بأن أعتذر منك على تأخري بالرد؛ فقد كنت مريضا الأسبوع الماضي وما إن بدأت أتحسن وأقوى على الكتابة حتى كتبت لك، وشكرا مجددا على رسالتك التي كنت أحتاجها فهي كانت كالنَفَس لي، كالمهدئ بعد كل ما مررت به، وشكرا لأنك اخترتني من بين كل المسجونين لتكتبي لي وكأن الله سخرك لي لعلمه بوجعي وتعبي وحاجتي لهذه الرسائل لأفضفض عما بداخلي من كلمات وأوجاع.

غاليتي بعد هذه المقدمة دعيني أخبرك بأني منذ دخلت السجن ورأيت الكم الهائل من المصائب التي تحدث به، تمنيت لو أني أتمكن من أن أوصل ما يحدث لخارج أسوار السجن، ولكن لم أحصل على هذه الفرصة ولم أجد أحدا يسمعني وذلك لأني لا أملك شخصا أهمس له فينقل همسي للخارج، شخصا يكون كالصوت لي، ولكن ومنذ أول رسالة لك وأنا أتشبث بالقنديل الخافت الذي حملته رسالتك بأن يصل يوما صوتي حتى لو أوصلت لك ربع ما يجري بين جدران السجون للخارج، فهذا يكفي لأريح ضميري المتعب والمنهك من كل ما رأيت وجرى أمامي من مصائب، لهذا قررت أن أخبرك عن بعض ما يدور في السجن.

ودعيني اليوم أبدأ بأكبرنا سنا ذاك المسن الصابر، كالجبل صامد، كلما ازدادت قوة الرياح ازداد هو قوة وثباتا، حين دخلتُ السجن كان هو قبلي بما يقارب الثلاث سنوات، دخلت وقد كانت الدنيا مسودة بوجهي، فما حال أمي وأبي من بعدي؟ وكيف سوف يتلقون الخبر؟ ماذا سوف يحل بهم وأنا ابنهم الوحيد؟ وقد فقدنا من وقت قصير فقط زوجتي وبعدها ابنتي؟ هل سوف يتحمل قلب أمي وروح أبي هذا الخبر؟ يا الله لطفك ورحمتك بهم، يومها يا

صغيرتي كنت مهموما جدا وحيدا تائها؛ حتى أتاني رجل كبير ووقور، النور يشع من ابتسامته التي لا تفارق وجهه حتى بأصعب الظروف، رأيت فيه شيئا يبعث على الراحة والسرور، قال لي: بني! أنت الآن مقدم على ابتلاء شديد يحتاج منك القوة والثبات، يحتاج منك الصمود والصبر، بني إن الرياح القادمة شديدة جدا وسوف تقتلع الكثير منك، ولكن نحن معا سوف نكسرها ولن نسمح لها بكسرنا، تذكر يا بني أن السجن قطعة من جهنم؛ ففيه من المنافقين وأصحاب الوجهين والخونة أكثر مما يوجد في الخارج، لهذا تأكد بأنه ستأتيك الكثير من العروض لتخرج من هنا معززا مكرما، وتدخل الجنة من أوسع أبوابها، ولكن تذكر ان جنة الدنيا يا بني زائلة لا تدوم لأحد، كن قويا من الداخل ليقوى جسدك وروحك ولتصمد في هذه المحنة، وسوف تراني دائما بجوارك كوالدك وصديقك، وداعما لك بالسر والعلن، ولكن تذكر بأن عليك أن تضع الله أمام عينيك وتلجأ له أولا حتى تتزود بالزاد الذي يوصلك إلى الصبر ولنهاية الطريق، وتذكر دائما لماذا أنت هنا اليوم، ولأجل ماذا ضحيت بكل ما تملك، حتى إن راودك الشيطان على الفرار فلا تفر هاربا فتخسر كل هذا الوجع والتضحيات التي قمت بها.

وفعلا منذ يومها صار كوالدي بل ووالد الجميع هنا فهو تبنانا جميعا وكأن السجن قد أهدانا هذا الرجل لنصبر على آلامه، ونتحمل وجعه بثبات وقوة، فهو الجدار الذي نستند عليه، والصخرة التي تبقينا واقفين على أقدامنا، كم من مرة ومرة قد سهر على راحتنا وطبطب على أكتافنا حين كنا نحتاج لذلك، صدقي يا بنفسج يوما لم أشعر بأن أبي قد توفي وأنه غادرنا وهذا الرجل الرائع في جواري، وكم يخيفني أن أفقده يوما فأشعر باليتم مرة أخرى ولكن هذه المرة سوف تكون أصعب وأكثر ألما، اليوم والسنوات تمضي بنا والعمر يجري على عجل بات يسكن جسد هذا الرجل الكثير من الأمراض، تلك الأمراض التي لم تجد بيتا سوى جسد رجل انهكته الدنيا لتسكن فيها، رجل قد أتعبه البعد وفراق الأهل والأولاد، وهذا أقصى ما فعلت به الدنيا فهي أبدا لم تقوى عليه، ولم تقو على أن تقهر روحه المستميتة لحياة أفضل يعيشها أحفاده الصغار، حياة كريمة لبلده الذي يحب ولأهلها الذين أتعبهم الظلم والموت الصامت، اليوم حان وقت سداد الدين فهو قد تحمل لأجلنا الكثير وقدم لنا الأكثر

فكم قد ضحى براحته من أجلنا، ولأن جسده صار ضعيفا صار علينا أن نتلقى عنه الضربات والعقاب، ونقسم له من طعامنا ليقوى على صلب طوله وليستمد القوة بين هذه الجدران الباردة المتعفنة، أتعلمين نحن لا يهمنا إن ضربنا لأجله أو مزقت أجسادنا حين يكتشف أمرنا بأننا كنا نحميه ونتلقى ضربات الجلاد بدلا عنه أو أننا قمنا بعمله بدلا منه، فهو قد ضحى بالكثير لأجلنا، وما أصعب العجز يا صغيرتي أن تجدي نفسك عاجزة عن فعل شيء يخفف عمن تحبين آلامهم، ما أصعب أن تنظري إليهم بصمت وعجز وأنتِ تحاولين أن تقنعي نفسك بأنك تقومين بأفضل شيء وأن فعلك هذا مجد وكاف، فقط لتسكتي ضميرك الذي يموت وجعا عليه وقهرا من يديك المربوطتين بدون فائدة أو أمل، وكم يؤلمك قلبك يا بنفسج حين تكتشفي بأن سنوات عمرك الطويلة قد ضاعت هباء في دراسة تخصص لم يفدك في أحوج اللحظات إليه وأن كل ما تعلمته لن ينفعك لتنقذي عزيزا من براثن الوجع والموت، وأنك تقفين حائرة حين تتوجه العيون لك بأمل أن يجدوا عندك الحل والعلاج لأوجاعهم، قاس هذا الشعور!، قاس جدا حين يكبلون جسدك ويديك عن كل شيء عدا الوجع والخذلان، عدا الفقد والحرمان

بنفسج سوف أترك لك الصفحة بيضاء تسطرين عليها ما تشائين دون تردد أو قيود كما أفعل أنا معك، فربما نكون دواء بعضنا البعض، وعلاج لأرواح بعضنا

جهاد)

ما الجديد؟

يجلس في زاويته المفضلة يشاهد أخبار العالم من خلال التلفاز فاليوم ويا للعجب قد سمحوا لهم بدخول التلفاز إلى المهجع، كان الجميع سعيدا بهذه الشاشة الصغيرة، وكأنهم قد أُخبروا بأن خروجهم بعد لحظات، فقد كانوا متلهفين ليسمعوا ويشاهدوا ما يحدث في الخارج، سعداء بسماعهم صوت غير صوت الصمت أو أصواتهم وهم يقرأون آيات القرآن أو يرددون أبيات شعر أو أغاني تسليهم وتجعل الوقت يمضي سريعا، كان أملهم بأن تكون أوضاع البلاد قد تحسنت ولو لدرجة بسيطة، وكأنهم لا يعلمون أن لا شيء سوف يتغير ما دام الحاكم نفسه، وما دام الحكم حكراً على عائلاتهم، وكأن لا أحد يستحق الحكم سواهم، أما جهاد فكان متلهفا لرسالة من بنفسج رسالة تحمل في طياتها أملاً مفقوداً وروحاً جديدة اشتاق لها، روح فيها رائحة الحياة، كان في قلبه أمل أنها ما خيبت رجاءه وقد ذهبت إلى زفاف أختها، فهو قد أدرك بحدسه العالي بأن حروفها التي خطتها بخاطرتها السابقة تحمل وجعا شديدا خبأته في كلماتها المرتبة المليئة بالحلم والرجاء أن تكون شقيقتها سعيدة، وأن يكون عرسها أسطورة من الأساطير، لا يعلم لماذا ولكنه يشعر نفسه مسؤولا عنها، وكأنها وصية شخص عزيز، أو أنها تحمل رائحة شخص كان له الحياة كلها، وهو في وسط ضجيج أفكاره سارحا في التجربة الجديدة التي يعيشها، قطع عليه الحارس أفكاره مناديا:

جهاد أحمد وصلتك رسالة، ويا للعجب لقد كثرت رسائلك هذه الأيام بعد سنوات من عدم سؤال أحدهم عنك أو حتى زيارتك، وكم أتمنى أن أعلم سبب سماحهم بوصولها.

تقدم جهاد متخطيا الجميع راسما ابتسامة لا تدل على ما بداخله من مشاعر ملتهما الرسالة عائدا إلى زاويته الحبيبة.

(جهاد

كل حروف وكلمات لغتنا الغنية الثمينة بالكنوز لا تكفي لأشكرك على رسالتك وكلماتك التي دفعتني للذهاب إلى زفاف أختي، أتعلم لقد كان زفافا مميزا، زفافا يليق بقلب وروح أختي الغالية، وكم سعدت حين رأيت أختي بأجمل إطلالاتها، لقد قابلت الكثير هناك يا جهاد، أتعلم! كان هناك من يرمقني بنظرات الخوف والاستهجان من قدومي، فبعرفهم المجنون لا يجب أن يختلط مع العاقلين، كانوا ينظرون بعيون تحمل الكثير، ولكني لم أبالِ فقد تجاهلت الجميع ومضيت مبتسمة سعيدة، فأنا لا أخجل من كل ما أمر به، بل أنا سعيدة لأنني وصلت لمرحلتي هذه بالتصالح مع حالتي وفهم حاجتي للعلاج النفسي، أتعلم! كان أصعب ما مررت به يا جهاد ليس نظراتهم ولا همزاتهم ولا لمزاتهم، بل كان رؤيتي لذلك الغائب البعيد القريب، لذلك الحبيب الذي ينبض قلبي باسمه ويجري في شراييني مجرى الدم، لقد قابلته اليوم وجها لوجه بعد انقطاع دام لأكثر من سنة، وكم بذلت جهدا جبارا حتى لا أُظهر تأثرا، أو أن أنهار، وكم تمنيت لو كنت أستطيع أن أسرع إليه وأحتضنه، هامسة في أذنه عن حاجتي وشوقي له، أطالبه بأن يحتضنني ليخف كل وجع يسكن روحي، ولعلي أجد بين أحضانه ونبضات قلبه نفسي التي أضعتها، وروحي التي سافرت بعيدا عني، ولكن ما كان باستطاعتي أن أفعل شيئا سوى تجاهله فحسب. وكم تطلب مني تجاهله عمرا بأكمله، وقوة فوق القوة التي بذلتها، وجهداً فوق الجهد الذي عشته، ولكن تلك الغصة التي سكنت قلبي، والدموع التي امتلأت بها عيوني كانت تخبرني بأني سوف أضعف وأستسلم لحزني ولشوقي له، ولكن نظرة بعيون أمي وأبي، ولمحة لضحكات أختي الخجلة، ولمسة من يد أخي الكبير على كتفي داعما ومساندا لي بصمت وكأنه كان يعلم ما في قلبي من أوجاع وأحزان، كانت كافية لتجعلني أقاوم من أجل أسرتي، من أجل من قدم لي الكثير، وقد كان لزاما علي أن أرد لهم الدين.

دعني اليوم أخبرك يا جهاد سرا لا يعرفه الكثير عني، فأنا منذ زمن بعيد حين كنت في أول أيامي الجامعية، بل بالأصح في أول يوم لي في مجتمع الجامعة الجديد علي، كنت خائفة؛ أتلفت يمينا ويسارا، فهذا العالم كبير علي، أنا الطفلة التي أخطو على عتبات الشباب، كان

أملي ألا أضيع في وسط هذه المتاهات المكتظة بالطلاب، ومن بعيد لمحت شابا تميزه سمرته العربية، وعيونه السوداء التي تحمل دفء شمس بلادنا، بعيدا عن صقيع هذه الأراضي، يحمل على بشرته رائحة الياسمين ورمال الصحراء وخضرة الأراضي المليئة بالخير والعطاء، كان يقف مع مجموعة من الشباب، عيونه كانت مثبتة علي، ينظر لي بين فترة وأختها، حتى تقدم مني وهو يقول:- هل أستطيع أن أخدمك في شيء يا صغيرة؟؟

نظرت إليه بضياع وفرح فهو سوف يكون طوق نجاتي وأجبته: أنا تائهة هل بإمكانك أن توصلني إلى صفي حتى لا تفوتني الحصة الأولى؟

ضحك يومها عاليا وأنا اشتعلت غضبا، فما المضحك في القصة، وهل كلامي هذا يحمل نكتة أو شيئا فكاهيا، إلا إن كان يسخر مني وهذا فعلا يغيظني كثيرا، وبعد أن هدئت نوبة ضحكته المجنونة قال لي: أنت الآن في الجامعة يا حلوة، لم يعد هناك حصص أو صفوف، هناك محاضرات وقاعات للدراسة، هيا بنا لأدلك على صفك حتى لا تفوتك الحصة يا صغيرة.

يومها حقدت عليه وكم تمنيت لو أضربه كفا يعيد له عقله، ويخلصه من روح الفكاهة التي يتحلى بها، ولكني كنت بحاجة إليه ليرشدني للقاعة، لهذا تمالكت غضبي والتزمت الصمت باحترام، وأنا أكاد أحطم له فك أسنانه العلوية كاملا، وهكذا مضى يومي الأول في الجامعة بعد أن دلني على أغلب ما سأحتاجه هناك، ومن هنا بدأت قصتنا التي انتهت كما بدأت بتمنى لو أحطم له فك أسنانه التي يحملها حتى يتوقف عن إطلاق وعود لن يتمكن يوما من الوفاء بها، سوف أخبرك بباقي الحكاية في يوم ما ولكن لندع الذكريات نائمة اليوم؛ لأن إيقاظها سوف يكلفنا الكثير وأنا منهكة من كمية المشاعر المختلفة التي تعرضت لها هذه الفترة.

والآن أخبرني عن قصص السجن عندك فربما حقا أتمكن من توصيل صوتك للعالم، كما كنت تتمنى أنت دائما، فربما أكون قد كفرت عن ذنب لم أقترفه بحق ذاك الغالي البعيد بنفسج)

تجلس في حديقة المستشفى تنظر للا شيء، منفصلة عن عالمها وكأنها تعيش في دنيا بعيدة عن دنياها، وفي عالم لا علاقة له بعالمها، لقد كانت جلسة العلاج اليوم متعبة جدا حد الإنهاك، فقد لعب الطبيب بذكرياتها وحاول جاهدا أن يعيدها لتلك اللحظات من جديد، وكأنها تحدث الآن لا منذ سنة أو أكثر، وقد فتح عليها بابا حاولت جاهدة أن تغلقه دون أن تعبث به، ولكنه كان مصرا اليوم على أن يتلاعب بذاكرتها شاءت أم أبت، يا الله أسبوعا مضى على عرس أختها لم تكن تعلم بأنها قد اشتاقت لصديقاتها وبنات خالاتها قبلا، وأنها كانت تفتقد وجودهن بحياتها، تفتقد كلماتهن وقصصهن الجميلة المتنوعة التي لا تنتهي، كم تتمنى لو تزورها أختها بعد عودتها من شهر العسل، فهي لم تجلس معها أو تتحدث لوقت طويل في العرس، ترى كيف هو البيت الآن؟ فها هو اليوم قد أصبح دون فتاتيه وعلى حد قول والدها بأنهما كانتا زهرتي البيت العطرتين، ترى كيف حال امها وأبيها واخوانها الشباب؟ دوما كانوا الشباب مصدر الجنون والطيش في البيت كما كانوا ضحكته، ولكم تشتاق إلى تلك الأيام معهم وبينهم في منزلهم الحبيب، تشتاق لفراس ذاك الرجل بقلب طفل وعقل مراهق، دوما كان مصدر قلق أمها وغضب والدها، هو كان صاحب الإثارة فلم يكن يخلو يوم من مشاكله ومقالبه، على عكس فارس العاقل المحب المطيع. شخصيتان متناقضتان لا يتشابهان بشيء ولكن حين يأتي الأمر للعائلة فحنان العالم يسكنهم فهم ينسون كل خلافاتهم ويضعونها جانبا ليتحدوا كأنهم ما اختلفوا أبدا، يا الله كم تشتاق لخالد فنان العائلة، كم مرة رسمها وقد كان يخبرها بأن ملامحها تعطي للفنان روح الإبداع والإلهام، لقد كان يرسم كل شيء حوله قائلا: الفنان الحقيقي يستوحي لوحاته من أصغر شيء حتى لو كان رذاذ غبار، دائما كانوا يحلمون بأن يقيموا معرضا له؛ ليرى العالم إبداعه وروحه الحساسة الرقيقة، أما صغيرها مجاهد فذكرياتها معه معدومة، ولد في أصعب أيام حياتها، وعاش بعيدا عنها فهي لم تره سوى مرات قليلة عندما يزورها هنا، يا الله هل كتب علي أن أحتمل شوقي إليهم وأفتقد وجودهم معي وحولي وهم على قيد الحياة؟ كم كنت بشوق لأحمل أخي لأعلمه أول كلمة وأول خطوة، وأرسم معه أول رسمة، وأخط معه أول حرف، لقد فعل كل شيء لأول مرة وأنا بعيدة عنه لم أشهد له شيئا، يا رب خفف هذا الوجع

عن روحي وأراحني من ألم سكن فؤادي، نفضت رأسها تبعد عنه كل ما سوف يؤلمها، يكفيها اليوم عبثا بالذاكرة ووجعا لروحها المشتعلة، نظرت إلى السماء وهي تخاطبها "ليت الدنيا بنقائك، ليت البشر ما عاثوا بها فسادا وما لعبوا بأرواحنا وحولوها لرماد مشوه" قامت بهدوء لغرفتها وهي تعلم بأن طبيبها يقف على بعد أمتار يراقب انفعالاتها، فهذه أول مرة تخرج من باب المستشفى حتى لو للحديقة منذ دخولها المستشفى، إن كانت لن تحسب خروجها لعرس أختها، كانت تتأمل ممرات المستشفى وهي تحاول أن ترسم ابتسامتها المعتادة على وجهها لقد افتقدت رسالة جهاد وهي تعلم بأن الطبيب حجزها عنها حتى تخرج إلى الحديقة، وقد كانت متيقنة أنها ستحصل عليها اليوم وفعلا حين وصلت لغرفتها وجدت الممرضة تقول لها: وصلتك رسالة.

أخذتها شاكرة وهي تجلس على الاريكة

((بنفسج أيتها الصغيرة الحبيبة

أيتها الكاتبة الرقيقة فخور أنا بك وبأني تعرفت على قلم كقلمك المبدع، تابعي يا صغيرة فيوما ما سوف يصبح لك شأن في عالم الأدب، وذكر سوف يتوارثه الأجيال، سوف يكونون فخورين لأنهم يقرأون حروفك الرقيقة المبدعة، لا تشكريني فأنا من علي أن أشكرك لأنك ما خيبتي ظني بك وذهبتِ إلى العرس، فخورا أنا بشجاعتك وقوتك التي تتحلين بها تجهلينها أنت أو تحاولين إخفائها تحت أكوام الوجع، ولكني على يقين بأنك يوما سوف تنفضين عنها غبار الدموع، وسوف تنهضين من ركام الألم كما العنقاء بدون أن تتركي أثرا على روحك. دعيني أحدثك يا بنفسج اليوم عن أكثرنا إثارة ومتعة، إنه نضال حين دخل السجن كان ما يزال في الخامسة والعشرين من عمره، شابا صغيرا مدللا وطائشا لم يكن يعلم من الحياة الكثير، كان قد عاش لأجل نفسه وحسب ولأجل ملذاته ومتعته الخاصة، أتذكر يوم قال لنا قصته كم تأثرنا وتعاطفنا معه وقد كانت ردود الأفعال مختلفة ما بيننا، فهناك من أبتعد عنه احتقارا ومنهم من احتووا خوفه وتفهم وضعه وأخذ بيده إلى طريق الله، ومنهم من تجاهلوه وكأنه غير موجود بينهم.

قصته يا بنفسج ليست قصة غريبة، هو فقط لم يجد من يوجهه للطريق المستقيم، أو يعلمه الصواب من الخطأ، فقد دللـه كل من حوله، وبالغوا بمشاعر الحماية حتى جعلوا منه أنانيا يظن نفسه دائما على صواب، والداه كانا منشغلين عنه في متاهات الحياة، فوالده أراد أن يجمع من المال الكثير والكثير، وكلما زاد ماله زاد طمعه وطالب بالمزيد، لم يجعل لنفسه سقفا يقف عنده أبدا ليتمتع بماله ويتشارك المتعة والوقت مع أسرته، ظن بأنه حين يعوض غيابه بالمال الوفير سوف يريح ضميره، ولن يشعر أحد بغيابه، أما أمه فانشغلت عنه باحتفالات واجتماعات وواجهة اجتماعية زائلة زائفة، ولكنها بها قد عوضت غياب الزوج وإهماله لها سعيا لطلب الرزق، وهكذا عاش يبحث عم يسعده وعن أحد يعوض غياب الوالدين، لم يضع له أحد خطوط حمراء يتوقف عندها لهذا لم يترك بلد إلا وسافر لها، ولم يشتهِ شيئا إلا وحققه، فعل كل المحرمات معتقدا بأنه سوف يجد سعادته حينها، كان يبحث عن السعادة والاستقرار الذي لم يجده يوما في بيته، كان يبحث عن حب بلا شروط ودون مقابل، فوالداه أحباه وعوضوا غيابهم بالمال، هو كان يبحث عن ذاك الحب الذي تجده لدى والديك، فأنت مهما فعلت ومهما ارتكبت من أخطاء فلن يلوموك أو يقسوا عليك، بل سوف يحتوونك ليكونوا لك العون والدعم، سوف يكونوا لك دوما سندا دون أن يمنوا عليك، سوف تكون دوما على ثقة بأنك مهما ابتعدت سوف ينتظرونك، ومهما كان الظلام يغطي روحك سوف ينيرونه بحبهم ودعواتهم التي لا تنتهي أبدا، وأنك مهما تهت ستجد صدرهم مفتوحا لك مناديا لك تعال لنعيد تجميعك من جديد يا حبيب الروح، ولكن نضال كان وحيدا يغوص بالوحدة يوما بعد يوم وكل ما كان يفعله لا يبدد ذاك الشعور والوجع الذي كان يكبر ويتزايد أكثر وأكثر، حتى وقع في الحب أحب فتاة بصدق ومن كل قلبه، أحبها بمشاعره الأنانية، وجد عندها التفهم والاحتواء والصبر والمحبة، أحبها وهو الذي لم يتعلم يوما ما هو الحب، ولم يتعلم كيف يكون بالحب عطاء وأخذا بالتساوي، لهذا ضاع في ذاك الحب بدل أن يدله إلى الطريق الصحيح، وأغرق الحب في ظلامه بدل أن ينير الحب قلبه، حتى صار هذا الحب ثقلا عليه وهنا بدأت المشكلة، فهو ضاع وأضاعها معه دون أن يكترث أو حتى يشعر بهول ما يحدث من حوله، وجاءت حينها صحوة الأهل المتأخرة والندم الذي لن ينفع بشيء، فهذه

الفتاة من علية القوم وممن لديهم مصالح مشتركة بينهم، جاءت الصحوة التي لن تجدي، فأبناؤهم كانوا غارقين في متاهات الحياة، كل واحد منهم يبحث ويكتشف وحيدا وما عادوا يحتاجون وجود الأهل وقيودهم التي أرادوا وضعها متأخرا جدا، فحين علم الأهل بما فعله ابنهم أرادوا أن يتداركوا الأمر وأن يخففوا من هول الفضيحة بتزويج الشباب وإراحة الضمير الذي كان يؤنبهم، ولكن نضال الذي لم يتعلم يوما تحمل المسؤولية، ولم يتعلم كيف يحل مشاكله سوى بالهرب، قد هرب من أهله خوفا من القادم، كان يهرب دون أن يدرك بأنه هرب من بلاء ليقع ببلاء أكبر فقد عبر من مكان تقام فيه المظاهرات الرافضة لنظام الحكم، المعارضين لما يحدث بالبلاد وقد داهمت الشرطة والجيش التظاهر ليعتقلوا كل المتواجدين هناك، فيؤخذ معهم ويضيع بين الأقدام فهو سجن دون توجيه تهمة، وحكم عليه بالسجن المؤبد مع الأعمال الشاقة، وها هو يمضي حياته بين القراءة والتأمل فلقد تغير الشاب الطائش إلى حكيم ومفكر، فصار لا يغادر سجادة الصلاة، والمصحف لا يفارق يده أبدا وقد صارت دموع الندم وأنين قلبه مسموعا طوال الليل، ولكنه قد خسر الكثير بعد هذه التجربة القاسية، فحتى الآن لا يحادثه والده رافضا حتى زيارته ولو لمرة، أما أمه فقد فارقت الحياة وهو بعيد جدا عنها دون أن ينعم بحضنها ولو لمره في هذه الدنيا، دون أن يسمع صوتها الحنون الذي كان يحلم به في الليالي، ولقد كان دائما يخبرني بأن أكثر ما يؤلمه بأنه صار يحلم بأمه وهي تدير وجهها عنه، وتقول له بأنها غاضبة منه دنيا وأخرة، وكم أخبرته بأنه هذه أضغاث أحلام وهو شعور عقله الباطن وأفكاره التي يهلوس بها، وليست رؤية أو حلم يؤخذ به، ولكن الندم الذي سكن قلبه جعله يؤمن بأن أمه لن تسامحه أبدا مهما مر من الوقت، وحتى بعد موتها ورحيلها القاسي، اتمنى يا صغيرتي أن تقرئي بعضا مما كتب لتعلمي مقدار ندمه وأن الإنسان يتغير ولا يبقى على حاله أبدا، فهذا الشاب الطائش المدلل قد صار حكيما عاقلا يأخذ منه الشباب النصائح، لتقرأي حروفه:

" كلنا نحب الله، ولكن من منا بحث عن الله حوله بصدق؟ فطبيعة البشر عندما تحب تبحث عمن تحبه في كل ما حولها *ولكننا نتجاهل هذا في علاقتنا مع الله*

فعندما نتأمل الأشياء من حولنا نرى بأن جزءًا من صفات الله بكل ما حولنا حتى لو لم تكن كاملة، فالكمال لله وحده فقد وضع الرحمة بقلب الأم، والعدل عند القاضي، والأمان عند الأب وغيرها من الصفات في كل القلوب التي حولنا، فإننا نرى أيضا بأنه زرع الجمال بكل شيء في الأشجار والزهور والأخلاق لنستشعر وجوده في كل لحظاتنا.

فكيف بعد كل هذا لا نجد الله في حياتنا؟ كيف لا نجده بابتسامة طفل، ودموع المسن؟ كيف لا نجده في المصائب والابتلاءات، كيف لا نجده في الأفراح والضحكات؟

لا أعلم لم نجهل الله وهو معنا في كل خطواتنا يرينا علامات كثيرة تنير أيامنا وتنهي حيرتنا كيف نمضي بالضياع ونحن نستطيع أن نبحث عن الله لنجده قريبا منا أقرب إلينا من أنفسنا، كيف لا نتوه في هذه الحياة ونحن نجهل الله ولا نتعب أنفسنا بالبحث عنه، لماذا نكتفي دائما بالصلاة والصيام وبعض العبادات التي نقوم بها كموروث توارثناه عن آبائنا وأجدادنا، ونتجاهل بأن الدين أجمل وأحلى حين نبحث عن الله ونعيش معه وبه حياة سعيدة هنية، فنحن حين نراه في كل ما يحيط بنا كيف نقوى على حرمان أنفسنا من أن نشرب من ماء نقي بالبحث عن الله؟؟ والعثور عليه في الكثير مما حولنا؟؟ ونعاود البحث، فهذا البحث لا ينتهي إلى بانتهاء الروح، وانقطاع النفس من الجسد فلا تتعب نفسك وتهلك روحك بالبعد عن الله، وبالرضا بأن نعيش بعباداتنا دون شعور وإحساس، فنحرم أنفسنا من هذه المتعة الجميلة التي تعطينا راحة وصفاء يبعدنا عن ضغوطات الحياة القاسية.

نضال"

هكذا يا صغيرة صار نضال يقضي جل وقته بين التأمل والكتابة بين البحث والأسئلة وكلما كتب أبهرنا وكلما تحدث أخذ عقولنا فصرنا كأنما على رؤوسنا الطير، فمن كان يتخيل أن يتغير هذا الشاب ويصبح بهذا التقى والورع، ومع هذا ما زال يحاسب نفسه على ما فعله في الماضي البعيد، ومازال يدفع ثمن ذاك الماضي، ودائما ما يردد "إن لم يسامحني أبي فلن أشعر بالراحة وبانتهاء الماضي فأنا لن أصفح عن نفسي مالم يصفح أبي عني أولا" إن أشد أنواع الندم هو الندم الذي يأتي متأخرا جدا فيصبح لك الطوق الذي لن يجعلك تعود للحياة من جديد مهما حاولت. بنفسج كوني بخير، وأبهريني في رسالتك القادمة يا صغيرة)

ساعة التنفس هي ساعة من حياة السجين التي لا يتمنى قدومها، ولكن ما إن تأتي حتى يتمنى أن تدوم مدى العمر، فهذه الساعة الوحيدة التي يشعر فيها السجين بمذاق بسيط من الحرية يحاول أن يقنع نفسه بأنه ذاق طعم الحرية التي يحلم بها منذ سنوات، فهو سوف ينظر إلى السماء ويلامس جلدة شعاع الشمس، سوف يستنشق هواء نظيفا حرم منه منذ زمن، سوف تمتلئ رئتيه ببعض النقاء بعيدا عن تعفن جدران السجن، سوف ينزاح عنه أطنان من الهموم التي تسكنه حين ينظر إلى السماء الصافية، ولكنه يتمنى ألا تأتي فالسجان لا يعرف معنى للرحمة أبدا حتى في ساعة من الحرية التي يتكرم بها عليه يذيقه طعم الذل والوجع، فكل من يخرج يجب أن يمر على جسده السوط والعصي وهو يمضي في الممرات حتى يصل إلى الساحة الخارجية، ولكن سرعان ما ينسى الوجع وهو يتمتع بالهواء والشمس، كان جهاد ينظر إلى السماء البعيدة وهو يخاطب أرواحا سكنتها منذ سنوات ولكنها لم تفارقه في الصحو والمنام حتى بعد رحيلها عن الحياة، يخاطب شذا أيامه وبهجة روحه زوجته الحبيبة والصديقة التي بحث عنها حتى وجدها، وسرعان ما غادرته تلك الحبيبة التي كانت بلسما لجراحه وأملا لمستقبله، تلك التي دخلت حياته لتجعل لها طعما مختلفا جميلا ونكهة بلون البحر تحملهم عيناها المشرقتان دائما الصافيتان كسماء الربيع العطرة، وقد أهدته زهرة حين وقعت عيناه عليها أول مرة واستنشق رائحتها وجدها تشبه الياسمين وكأنها ياسمينة قطفت من بستان مزهر فأسماها يومها ياسمين، وصارت ياسمينة تعطر حياته وتنشر عطرها على كل من حولها لتبقى حياته برائحة الياسمين، وما أروعها من رائحة، نظر إلى السماء وخيل إليه بأنهم ينظرون إليه الآن فخاطب أرواحهم يقص لهم كثيرا من المشاعر والأحاسيس التي تمر بقلبه؛ متمنيا لو يطلوا عليه بحق ليريحوا روحا أتعبها الفراق وأضناها البعد والاشتياق، من بعيد سمع صوت يناديه تلفت حوله ليجد أحد السجانين يخبره بأن هناك رسالة وصلته، أخذها بابتسامة هادئة تنير وجهه ليفتحها:

((جهاد العزيز:

دائما كان لاسم جهاد بحياتي طعم مختلف أحببته أكثر من أي اسم أخر حتى بات لا يفارقني أبدا، دعني أخبرك بأن لقصصك أثر كبير على نفسي، ففي حياتنا الظلم أشكال وألوان،

فهناك ظلم الحاكم وهذا ما تعانون منه أنتم وكل الشعوب العربية، وهناك ظلم الأهل والأقارب والأحبة وهذا ظلم تجده كثيرا في العوائل الكبيرة، فتجد الخالة التي تظلم بنات أختها، أو العمة التي تكره أولاد أخيها لأنها لم تتفق مع الأم، و الزوج الذي يظلم زوجته ويذيقها الويلات، وهذا الظلم صعب مهلك للروح، فكم تتمنى لو تغيره ولكن أحيانا من أجل قلب أولادك أو من أجل دمعة أمك أو ابتسامة أبيك تسكت وتحاول جاهدا أن تتعايش مع هذا الظلم القاسي على الروح، وأصعب أنواع الظلم هو ظلم النفس فهذا الظلم هو ما ينهي الروح ويميت القلب دون أن تشعر بهدوء وصمت، إن حياتنا يا جهاد مليئة بالقصص التي لا يصدقها السامع ولا يؤمن بها أحد سوى من يعيش داخلها وعاش تفاصيلها بأكملها، أما نضال فكما يقال رب ضارة نافعة فلو لم يحدث له ما حدث في حياته لبقيَ حتى يومنا هذا تائها هائما على وجهه يبحث عن سعادة لن يجدها، ويحاول جاهدا أن يبحث عن شيء يملأ فراغ قلبه وروحه التي امتلأت الآن بالكثير، لهذا قل له بأن ما كتبه سوف أنشره يوما باسمه، فيجب على العالم كله أن يسمع صوته ويقرأ كلماته، فربما تكون بوصلة لأحد من الضياع.

لقد تركت المساحة فارغة حتى أتحدث بما أريد وهذا ما أحتاجه فعلا؛ أن أتحدث عن فترة عشتها وقد كانت من أصعب لحظات حياتي، تلك اللحظات التي لا يعلم عنها الكثير ولا يدركون بأنها هي اللحظات الفاصلة بين بنفسج العاقلة السليمة وبين بنفسج نزيلة المصح النفسي، فأنا يا جهاد ومنذ صغري عانيت من أشياء غريبة لم يدرك أحد ماهيتها حتى كبرت، وتفاقم الأمر فقد كبر كل شيء معي، لقد بدأ المرض بالظهور علي وأنا ابنة الاثني عشر ربيعا، لازلت حتى الآن أذكر المرة الأولى التي رأيت بها شخص وهمي خيل إلي بأنه حقيقي، يومها ظننت بأني رأيت أمي تدخل علي من باب الغرفة حين كنت أستعد للنوم فنهضت على عجل وأنا اسألها: أمي هل تحتاجين لشيء؟ هل هناك أمر ما؟ وسرعان ما اختفت الصورة من أمامي ولم أجد أحدا أقنعت نفسي يومها بأني أتخيل من شدة التعب والنعاس ونمت دون أن أفكر بالأمر أو أحدث به أحد، ليتكرر الموقف معي بعد عدة أيام، حيث كنت في زيارة لصديقتي تركتني لبضع دقائق فإذا بي أرى قطة سوداء تنظر بعيوني

من خلف باب الحديقة، دب الرعب في قلبي، فأنا أكره القطط فما بالك بسوداء ذات عيون زرقاء وكأنها الشيطان؟ وحين عادت صديقتي إلى الغرفة اختفت القطة من أمام ناظري وكأنها لم تكن أبدا، كان ظاهرا على وجهي الخوف والرعب وكأنني رأيت شبحا، سألتني صديقتي حينها عن سبب اصفرار وجهي وهل تلقيت خبرا غير سار؟ فأخبرتها بأنه بسبب التعب، سألتها من باب الفضول وكان قلبي ينفض بالرعب هل هناك قطة سوداء تسكن بالجوار، فكما تعلمين أنا لا أحب القطط وإن كان هناك قطة فأنا لن أخرج معك للحديقة فكوني صادقة يا صديقة، تعجبت صديقتي من هجومي هذا ولكنها ضحكت محاولة تلطيف الجو الذي لا تعلم سبب تكهربه قائلة: إننا نسكن هنا منذ زمن ولم نشاهد قطط في المنطقة والجيران لا يملكون أي قطة فلا تخافي يا مجنونة، ابتسمت في وجهها وأنا أبتلع الخوف واتلفت حولي: يا الله ماذا يحصل معي غريب هذا الأمر وقد صار يوترني أكثر وأكثر.

ومن هنا يا جهاد كانت بدايت قصتي مع المرض فأنا بعدها صرت أرى أشياء لا يراها أحد ممن حولي، وقد بدأت قصص الوهم التي يطلق عليها الكثير رحلة الجنون، وبدأت المعاناة التي ظننتني سوف أتجاوزها بسرعة، إلا أن الرياح تجري بما لا تشتهي السفن، في البداية حين استشار والداي العالم من حولنا قالوا بأن ما بي بعضا من السحر والعين فعلها أحد من ضعاف النفوس يريدون بك السوء، خافوا على ابنتكم من شياطين الإنس والجان، اقرأوا عليها آيات ربكم حتى يفك الله السحر ويبعد عنها شر العين، وبدأت الدوامة، دوامة لا حل لها ولا نهاية، وكأنك بكرة تدور فيها، تدور دون أن تصل لبر الأمان، صار أبي يبحث عن أفضل من يعالج بالرقية، عن مشايخ يبعدون عن ابنته الصغيرة شر الشياطين، وصارت أمي تجلس تقرأ على الماء وتسقيني إياها وتحفني بالدعوات، راجين من الله أن يكتب لي الشفاء من هذا الداء، أتعلم يا جهاد! ما زلت أتذكر البيت في تلك الفترة، كان هدوء الترقب والقلق يكاد يقضي عليه، كان الرعب في عيون إخوتي موجع ومخيف، لا أتمكن من أن أنساه أبدا مهما مرت السنون، خوفهم من كل ما يحدث حولهم ورعبهم على أختهم الحبيبة التي يخافون عليها ولا يعلمون كيف يمكنهم مساعدتها جعل الوضع مرعب ومخيف، كنا كلنا صغارا على الخوض في هذا العالم الغريب، هذا العالم المرعب المخيف، لقد كبرنا تلك

الفترة أعواما كثيرة قبل أواننا ومع هذا لم يصبنا اليأس أو الملل من علاج سوف أجده عما قريب ليريح قلبي ويريح أسرتي من حولي، لهذا أستمرينا بالبحث والسؤال، صار إخوتي يسألون من حولهم عن سبب ما أمر به، حتى استشار أبي طبيبا ثقة عن حالتي، فقال له خذها للطبيب النفسي فعلاجها هناك لن تجده في مكان آخر.

سوف أكتفي اليوم بما كتبت فحديثي عن هذه الفترة يؤلم قلبي و يرهق روحي فقد كانت فترة صعبة مميتة لكل شيء جميل في الروح والحياة، وسوف أخبرك برحلتي بالعلاج النفسي في المرات القادمة.

جهاد أنتظر منك المزيد من القصص عن السجن، ذاك العالم الذي أتمنى أن أعرف عنه الكثير أتمنى لو أعلم كل أسراره وخفاياه، عالم سكنه أقرب الناس إلى قلبي، وأضاع به الكثير من عمره، لقد سرقه منا وابتلعه، وكم أتمنى ألا يبتلع أناس أخرون، ويكتفي بكل تلك الأرواح التي أخذها منا فيرضى ويسكت بعد الآن.

بنفسج)

الأمل بين الألم يسكن

تجلس في غرفة أحد المريضات التي تدعى كاترينا، تحاول أن تخرجها من حالتها فمنذ خمسة أشهر قدمت إلى هنا تحمل معها قصتها المأساوية التي جعلت الكل في حالة صمت وترقب لما سوف يحدث معها، وحزن وألم على ما عاشت هذه الأسرة من مأساة قلبت موازين حياتهم رأسا على عقب، ففي أحد الأيام المشمسة قررت الأم المسكينة أن تخرج أطفالها الثلاثة إلى الحديقة لكسر روتين الدراسة والملل الذي يعيشون فيه في الفترة الأخيرة، أوقفت الأم سيارتها أمام إحدى البقالات لتحضر لهم بعضا من التسالي والأطعمة التي تسليهم في مشوارهم هذا، وبعد هبوط الأم ببضع ثوان قليلة استدارت لتلوح لصغارها من النافذة متأكدة بأنهم يجلسون بهدوء وأدب دون أن يقوموا بأي شيء يؤذيهم، ولكن حدث مالم يكن في الحساب إذ أن سيارة مسرعة كان يسوقها شاب طائش قد شرب حتى سكر ولم يفكر بعاقبة هذا الأمر تضرب سيارتها لتدخل بها أخدة أرواح الأطفال الثلاثة وهي أمامهم تشاهد ما يحدث دون أن تفهم ما الأمر، وما عليها أن تفعل فهي فعلا عاجزة لا يمكنها فعل شيء سوى أن تسقط على الأرض تصرخ وتنادي بأسماء أولادها الثلاثة لتدخل بعدها بانهيار عصبي، فاقدة القدرة على التواصل مع العالم الخارجي أو الحديث، فلقد ماتت هي معهم حينها حتى لو أنها ما زالت تتنفس بصعوبة، شاعرة بأن النفس الذي يدخل جسدها من دون أطفالها يمزق روحها تمزيقا، أحضروها بعد ذلك إلى هنا وهي في حالة صمت وسرحان دائم، كانت تحاول حثها على الحديث أرادت منها أن تكسر حاجز الصمت وتخرج إلى الدنيا بدل هذه الحالة التي تحياها، إلى أن كل محاولاتهم بائت بالفشل فهي لا تستجيب مع أحد، ولم تبق طريقة لم يجربها الطبيب معها، ولكنها مصرة على عدم مواجهة الحياة، طرقت الممرضة باب الغرفة ودخلت وهي تقول: بنفسج وصلتك رسالة.

نهضت بنفسج وابتسامتها المشرقة تنير وجهها وهي تقول: وأخيرا سمح الطبيب بها، هاتها بسرعة قبل أن يغير رأيه ويعيد حبسها في أحد أدراجه الكئيبة.

ضحكت الممرضة وهي تناولها الرسالة وتغادر.

((بنفسج يا صغيرة

لقد سر نضال لأنك سوف تنشرين ما كتب، فهذا شيء تمناه منذ زمن أن يصل صوته لأحد الشباب الذين يعانون مما يعاني يوما أحد الشباب ممن يبحثون عن السعادة بعيدا عن الطريق الصحيح وهو طريق الله، ولقد أصر هو وكل من بالمهجع على أن يقرأوا لك شيئا مما تكتبين فأرسلي ما تشائين ليقرأ كل من هنا ما يخطه قلمك الجميل، ولقد أعطاك كامل الحرية لتنشري نصه بأي مكان وأي زمان فالصلاحية كلها بين يديك، ولكنه له رجاء واحد منك فحين تنشرين مقاله ابعثي لوالده نسخة منها عسى أن يحن قلبه فيسامحه فيريح قلبه وقلب نضال المتعب من شدة الشوق والفراق، فهذا الفراق ليس فراق الأجساد فقط بل فراق الأرواح أيضا الذي يحمل من الغضب الكثير والكثير.

أما اليوم فسوف أروي لك قصة حسن، هو حسن الروح والخلق حسن الداخل والخارج أخذ من اسمه الكثير وكأن هذا الاسم لا يليق إلا به وحده، هو ذاك الفتى الصامت المبتسم على الدوام يدور في عقله الكثير من الوجع وفي قلبه قصص شتى كلها تنتهي بابتسامته التي تضيء درب من حوله، أتعلمين يا بنفسج! حسن من القلة القليلة الذين حين تعرفينهم أول مرة تشعرين وكأنك تعرفينه من قبل الميلاد.

حين دخل حسن السجن كان يبلغ من العمر تسعة عشر عاما عمره صغير ولكن عمله كبير، دخل محمل بالكثير من الشجاعة وقوة الشباب واندفاعهم، أتعلمين! لقد سمعت عنه الكثير قبل دخولي إلى السجن سمعت عن بطولاته وقوته، سمعت عن شجاعة قليلا ما تكون في شباب هذا الزمن حتى ظننت بأنه أسطورة يرويها الثوار ليدب في أنفسهم الشجاعة والثبات، حين تقابلنا كنت سعيدا جدا لأني تعرفت إليه شخصيا، تعرفت على الأسطورة التي سمعت عنها الكثير، وحتى هذه اللحظة ما زالت همته كما هي عالية، بل هو أكثرنا همة وحماس وأمل، يؤمن بأن العالم يوما سوف يتغير للأفضل كما حلم دائما وناضل لأجل هذا،

وما زال يطمح لتغيير العالم للأفضل حتى وهو بالسجن، فهو يقول: السجين من يرضى بالقيود على معصمه وروحه لا من يغلقون عليه الأبواب، أبدا لم يسمح للقضبان أن يؤثر عليه سلبا فهم قد سجنوا الجسد لا الروح، وها هو يتبنى صغار المساجين محاولا أن يبث فيهم روح المقاومة والصمود، ففي السجن لا شيء يساعدك على الحياة بين جدران السجون إلا الصبر والثبات، وهو قد قرر أن يبثها لكل من حوله حتى لا يضيع جهودهم هباء، لقد روى لنا أمين يوما عن بطولته "وأمين الوطن له قصة جميلة بل مميزة جدا سوف أخبرك بها ذات يوم قريب جدا" فحسن يرفض التحدث عن نفسه وعن والبطولات والصراعات التي قام بها، المهم لقد قال لنا أمين أن حسن كان يقاوم دون أن يختبئ خلف شيء وكان حتى يرفض قناع الوجه ليخفي به هويته قائلا بأنه لا يخجل من دفاعه عن وطنه، ومن حبه للخير لهذا الوطن الحبيب فلماذا إذا يتخفى خلف أقنعة بالية؟ لم يكن يخشى أن يتعرف عليه أحد فيصل له عن طريق بيته أو الأماكن التي يذهب إليها قائلا نحن الآن نصارع لأجل الوطن فهل سوف يكون لنا وقت لنمرح أو حتى ننام فنرتاح، لا راحة لنا ولا بيت يأويني قبل أن يعود لنا وطننا حرا أبيا كما عهدناه دوما، وكان من الشهامة بأنه يرفض بأن يقوم بقتل الأشخاص في الشوارع أمام الأطفال حتى لا يرون الدم منذ طفولتهم، وحتى لا يتعود على مشاهد الموت وهو الطفل الذي عليه أن يحيى طفولته وبراءته كامله، فهو لأجل مستقبلهم يقاتل الدنيا كلها فهل سوف يكون سببا في أن يخسرها الآن؟ وكم مرة رفض بأن يقتل أي مسؤول لأن أهله معه حتى لو كان على يقين بأن هذه هي الفرصة الوحيدة للتخلص من خائن يبيع الوطن لمصلحته فقط، كان بطلا بحق لا مثيل له ولا وجود، كانت له قواعد لا يسمح لأحد أن يخالفها أو يتجاوزها، وكان وما زال لا يرضى بأنصاف الحلول فهي لا تليق بثوار الوطن، وكم يؤسفني أنه سجن اليوم وقيد جسده ولكن ما يواسيني بأنهم لم يقدروا على روحه فهم مهما كبلوا الجسد وكموا الأفواه لم يتمكنوا من أن يغيروا مبادئه وقيمه معلنا بأنها لن تتغير مع مرور الوقت أو تقلبات الحياة، وهكذا بقي لوقت طويل يقاتل كل من له يد في النظام حتى لو كان شخص صغير في النظام ليس له تأثير، حاولوا أن يمسكوه بشتى الطرق ونصبوا له الكمائن والفخاخ ولكنهم لم يتمكنوا منه

حتى وشى به أحد ممن يعملون معه، شخص ممن وثق بهم وأعطاهم سره فتم القبض عليه وعلى بعض المقاتلين الذين يقاتلون معه، وحكم عليه بالسجن المؤبد وهكذا أسروا البطل واستراحوا منه حتى أهله لا يعلمون مكانه، أو أنه على قيد الحياة أم قد وافته المنية وصار شهيدا في الجنان، ولقد علمنا كم حاول أهله وتقصوا وسألوا عن مصيره دون جدوى، وكم دفعوا من المال الكثير وكم ذاقوا الذل والمهانة فقط ليصلهم خبر حتى ولو صغير عن طفلهم الذي خسروه باكرا، فقط خبر يخبرهم بأنه يتنفس الهواء معهم وأن أنفاسه لم تغادر الحياة، بعد وإن سألتي كيف علمنا بكل هذا سوف أقول لك بأن هذا ما أخبرنا به السجانين في السجن ليهبطوا من عزائمنا وصمودنا ويجعلونا نستسلم حزنا وشفقة على أهلنا المتعبين من القلق والتوتر، ولكنهم فشلوا فشلا ذريعا فقصصهم هذه ما كانت تزيدنا إلا إصرارا وعزيمة لنصبر ونقاوم، فنحن نعلم بأن الكثير منا قد خلف وراءه أما ثكلى تناجي الله صبح مساء أن يجمعها به، وأب أعماه الشوق إلى وليده يخاطب طيفه كل حين، وأخوات ينتظرنه عند كل إشراقة شمس، ولكننا ولأجلهم ولأجل مستقبلهم في وطننا نحن نحتمل ونقاوم كل ما يصيبنا من بلاء.

اليوم لن أقول لك سوف أترك لك المساحة لتتحدثي كما تشائين بل سوف أطلب منك أن ترحمي نفسك فلا ترهقي عقلك وقلبك بالتلاعب بذكريات سوف تتعبك، بل سوف أقول لك دعي الذكريات تغفو بهدوء فإيقاظها أحياننا يؤلمنا بشدة وقد يدمر عقلنا وروحنا.

جهاد))

يجلسون في دائرة تتسع لكل المساجين في المهجع، فالمهجع مع صغره إلا أنه يتسع لأجسادهم، ولكنه لا يتسع لأرواحهم وذكرياتهم التي جمعوها على مر السنين، تلك الذكريات التي كانت سعيدة لتتحول مع مرور الأيام إلى مؤلمة لدرجة البكاء، وغصة تسكن الحلوق حين تذكرها أو الحديث عنها، فلكل واحد منهم قصص وحكايات ربما سمعوها من بعضهم عشرات المرات، ولكن في كل مرة يسمعونها تكون وكأنها أول مرة، فهي سلواهم في حبسهم هذا وكأنها روايات عديدة، وهل يمل القارئ من إعادة الرواية الجميلة أكثر من مرة؟ جلس جهاد كعادته بصمته المبتسم يتأمل المساجين حوله ويستمع لقصصهم منها الشيقة ومنها الدرامية ومنها الفكاهية، ومنها الحزينة المبكية، وهو مع كل القصص مستمعا غير مشارك بشيء، فمنذ زمن مل من الكلام وصار يجده بلا معنى أو فائدة، على يمينه يجلس حسن وعلى يساره عادل كانوا هم الثلاثة مع أمين الوطن يشكلون زوايا مربع قوي جدا، لم يستطع أحد أن يكسره يوما مهما حاولوا ومهما تكالبوا عليهم، كان كل من في المهجع يجهلون سبب خروج أمين من السجن، خروجه المفاجئ الذي جعل الخوف والقلق يصيب قلوبهم بدلا من الفرح له لأنه تخلص من قضبان السجن، وسؤال يراودهم دائما ماذا حل به يا ترى؟ أسعيد هو أم حزين؟ ولكنهم على يقين بأنه أبدا لم ولن يستسلم أو تهمد عزيمته في مواجهة القادم، ولكن هناك سر خفي خلف ما حدث وغيابه عنهم بدون زيارة أو سؤال يزيد الريبة في قلوبهم، تنهد جهاد وهو يقول في سره: يا رب سلم يا رب سلم.

قال عادل مخاطبا جهاد: ألم تصلك رسالة من فتاتك المجهولة؟؟

ابتسم جهاد بهدوء فالاثنان اللذان يجلسان في جواره يرفضان تلك الرسائل التي تصله؛ شاكين بأنها فخ صنع له من قبل الحكومة أو رئيس السجن أو ربما الاستخبارات، فكيف بالله يسمح لرسائل كهذه بالدخول والخروج وهم المحاسبين على كل حرف في الرسائل إن كانت صادرة أو واردة، وحده هو كان متأكدا بحدسه القوي الذي لم يخب يوما

أنها ليست فخا، وأن صاحبة الرسائل شخصية حقيقة تقطن في مدينة الضباب، ولا تريد به أو بأحد ممن معه من المساجين سوءا.

أجابه جهاد: لم تصل بعد مع أني أتوق شوقا لقراءة ما سوف تكتبه، فكما تعلمون بأن كل ما تكتبه يلامس شيئا عميقا في داخلي.

قال حسن: مع أني لم أؤمن بصدق الشخصية التي تكتب لك مع هذا، فكل ما يهمني أن تكون تعلم شيئا عن أهلي وأن تتمكن من اخبارهم أني ما زلت على قيد الحياة، وأن يأتيني منها خبر عنهم، ليتها فقط تجد لهم طريقا وبعدها سوف أؤمن بفتاتك المجهولة ذات الشخصية الغامضة.

قال عادل: هل تصدق أنها سوف تعلم شيئا عن أهلك؟ أو أنهم سمحوا برسالة جهاد بأن تصل لها؟ أو هل تظن حقا بأنهم سوف يسمحون لها بتمرير أخبارهم لك؟ أعلم يقينا أنها لن تستطيع، فمن منا تمكن من سؤال أهلنا عن أهلك كل من خرج من باب السجن طلبنا منه أن يبحث عن أهلك وأن يأتيك بخبر عنهم ومع هذا فهم لم يأتوا بشيء، حتى من جاء لزيارتنا تجاهل سؤالك المتكرر عن أهلك متظاهرا بأنه لا يسمعك وكل هذا خوف من السجن مجددا، ولكن جهاد أصر على أنها سوف تتمكن من أن تصل لشيء فلنر ماذا سينتج عن هذا الجنون الذي يعيشه صديقنا العزيز؟؟

عند انتهاء عادل من عبارته دوى صوت الحارس: جهاد أحمد! رسالة.

نهض مبتسما على وجه صديقيه وتقدم لأخذ الرسالة متجها إلى أحد الزوايا.

(جهاد

قبل البداية دعني اسألك سؤالا مهما، دعني أسئلتك عن اسم عائلة حسن؟ ومكان سكنهم في بلاد الياسمين؟ أو عن أي معلومة مميزة لديهم ربما تفديني بالوصول إليهم أو معرفة أي خبر عنهم، وسوف أقول لك ما في رأسي حين تجيبني على أسئلتي

أما عن طلبك بأن نضال والبقية يريدون أن يقرأوا شيئا من كتاباتي فسوف أبعث لك بأقرب النصوص إلى قلبي، ذاك النص الذي كتبته بدموع العين حين كان اليأس يسيطر على كل خلايا جسدي، نص كتبته حين توفي خالي الغالي على قلبي

"يقولون بأن الأيام كفيلة بأن تنسيك ألمك
ولكن الأيام تمضي
والألم يزداد لا ينقص
لم يزل للحظات أو يختفي
ما زالت النار في صدري مشتعلة
ما زلت أشعر بكلماته قربي
ما زلت أرى نظرات عيونه حولي
أرى بريق القوة والصمود في عينيه الحبيبة
أستمع للأمل الذي يغلف صوته
وأرى الصبر الذي كان يزين أيامه يحوم حولي
أرى كل لحظاتنا وكأنها تحدث الآن
وكأنه يعيش معنا الآن
آآه يا الله أين الصبر لأشتريه؟
في كل مساء أغمض عيني
فأتذكره
أبحر بين ضحكاته وابتساماته
بين تلك الآثار على وجهه
مخلفات مقاتل قاتل طيلة حياته ولم يعرف اليأس أو الاستسلام
في كل حين أشعر بملمس يديه على يدي
وهو يحتضنني مواسيا أو مداعبا فابكي شوقا
مضى زمن على رحيله
وما زال القلب يأمل بأن يعود
يأمل بأن يغسل الحزن من القلوب
لم يخيل يوما لقلبي بأني سوف أفتقده

كنت دائما أحلم بلحظات حياتي وهو بقربي
يساندني ويكون عونا لروحي الثائرة كروحه
لازلت أتذكر كلماته المشجعة في كل منعطفات حياتي
دوما أتخيله بقربي يمسح نظرت الخوف من عيني
ويمدني بالقوة التي يعتقد أني لا أحتاجها.
ظانا بأني أملك منها الكثير
يا الله كم أشتاقه
وكم الشوف للتفاصيل الصغيرة موجع
من بعدك يا حبيب الروح ما عاد للقهوة طعم
وما عاد للقلب حياة
كم اتمنى لو تعود لأهمس لك كم أحبك
يا أثمن الكنوز"

جهاد.. إن الذكريات التي ندفنها قبل أن تموت تبقى تقاتلنا لتحيا فينا وإني بحديثي إليك أحاول جاهدة بأن أخرجها لأضع عليها منوما أو مسكنا؛ عسى أن تنام بهدوء دون أن تزعجني لوقت أتمنى بأن يكون طويلا.

سوف أكمل اليوم من حيث توقفت في المرة الماضية بعد تلك المرات التي رأيت فيها الأشياء التي لا يتمكن سواي من رؤيتها بدأت الأمور تتكرر لمرات عدة دون أن أملك الجرأة حتى أخبر أحدا بالأمر، فأنا قد كنت صغيرة حينها لم أتجاوز الثالثة عشر من عمري بعد، طفلة تخاف الكثير، وأكثر ما كان يخيفني لمحة القلق والخوف في عيون أهلي أو ربما العجز، أعلم بأنك سوف تقول بأني كنت صغيرة على هكذا إحساس ومسؤولية، ولكني تعلمت منذ الصغر أن أتحمل مسؤوليات كبيرة، فأنا هكذا جبلت على الاهتمام والخوف على مشاعر من حولي، فكيف حين يكون الأمر متعلقا بأغلى القلوب؟ احتفظت بسري هذا لوقت طويل معتقدة بأنها مرحلة وسوف تمضي وتزول، ولكن الأمر تطور كثيرا وصار مع الأشخاص الذين أراهم أصواتا كثيرة تتحدث إلي وتخبرني بالكثير الكثير، بدأت الأصوات ليلا فكنت دائما

أسمع صوت فتاة تنادي باسمي فأستيقظ باحثة عن مصدر الصوت، معتقدة بأنه وقت الصلاة أو الدوام المدرسي ولكني أجد الجميع يغطون في نوم عميق فأعود إلى فراشي فزعة، يتملك قلبي خوف شديد، أختبئ تحت غطائي قارئة لكل آيات ربي التي أحفظها حتى يغلبني النعاس فأنام، وفي مرات أخرى كنت أسمع صوت ضحكات وصراخ؛ أحاديث عديدة؛ وأصوات عالية كلها تجعلني أصحو فزعة أنشد الأمان في بضع آيات أحفظها، ومن هنا تعمقت علاقتي مع دميتي التي كانت الحضن الذي أسرع إليه حين أصحو فزعة مرتعبة، ليس لعدم وجود أحد يحتضنني ويشاركني خوفي ولكني ما كنت لأخبر أحدا بما يجري معي حتى لا أتهم بالجنون، لصغر سني وقلة خبرتي كنت أظن بأن الصمت هو الحل الأمثل لهذه الأمور، حتى تعبت روحي وأنهكني الأمر، فصار النوم لا يجد طريقا لعيوني، والراحة لا تعرف أين هي روحي، بت أفزع من كل شيء، والشرود يكاد لا يفارقني أبدا، دموعي لا تجف من على خدي، وأخشى الخروج من عتبة البيت وحيدة، فأسرع لأمسك يد أمي وأبي ناشدة منهم الأمان، أتلفت حولي كل حين باحثة عمن أراد بروحي السوء، وعمن يتربص بي حتى يفتك بهذه الروح، بدأ الأمر يتحول لشيء مفزع عند أمي وأبي، فابنتهم الصغيرة المفعمة بالروح الحلوة التي لا تفارق وجهها ضحكاتها، وتخترع النكات اختراعا لترسم البسمة على وجه من حولها باتت روح باهته لشيء مجهولا عندهم، ترجتني يومها أمي بأن أخبرها بكل ما حل بقلبي مهما كان صعبا، ومهما كان معقدا سوف تجد لي حلا يريحني ويعدني ابنتها الصغيرة المدللة، كم طلبت مني أن أنشد منها الدعم والأمان، فهي وحدها من تريد لي الخير ولن تحاسبني أو تحاكمني مهما قلت ولها وحتى لو كان الأمر سيئا معقدا جدا، يومها جمعت كل شجاعتي وتعبي من كل ما يحدث معي لأخبرها بكل ما أشعر، وبكل تلك الأشياء التي أراها أو أسمعها بكل الخوف الساكن روحي من العالم المبهم حولي، يومها بكيت بين يديها كما لم أبكي أبدا، وقد خيل لي بأن روحي سوف تغادر جسدي، كنت أبكي وأردد بين يديها كم أنا متعبة يا أمي، وكم طاقتي باتت منعدمة تتلاعب بها الرياح فتأخذها عني بعيدا جدا جدا، أخبرتها بأني ما عدت أقوى على التحمل أو الصبر، فصغيرة أنا يا أمي على كل هذا الخوف، احتضنيني وأخبريني بأن العالم آمن، وأن غدي سوف يكون

أفضل، أخبريني بأن الحياة ليست سيئة وأن كل ما أمر به طبيعي جدا قد مر به كل الناس في عمري، احتضنتني أمي مطمئنة بأن كل شيء سوف يكون بخير، وقالت في أذني هامسة: لا تفكري بتلك الأوهام يا صغيرتي، كلها سوف تزول قريبا سوف تنتهي يا حلوة قلبي وستصبح ذكرى تضحكك قريبا، تجلدي يا حبة الفؤاد تجلدي.

ولكنها ما استطاعت إخفاء الخوف في عينيها والدموع التي تحبسها خشية أن تنزل أمامي فأضعف أنا أيضا، لمحتُ في عيونها كل هذا فتأكدت بأن الأمان والراحة اللذين تخبرني عنهما ما هما إلا وهما، فأمي الحبيبة كانت تجهل بأن تلك الشخصية الوهمية الموجودة بحياتي أنا فقط، قد تعمقت بعالمي فبات أمر إخراجها أشبه بالمستحيل، وأني ما كنت أقوى على تجاهلها، فأنا لا يد لي بكل ما أمر به وبكل ما يحدث بحياتي من تعقيدات، كنت أصغر من أن أحارب شيئا ملموسا على أن أحارب شيئا لا يعرف عنه سواي، لا يعلم من حولي بأنه يأتيني كل حين مخاطبا لي جالسا على سريري واضعا يده على كتفي، ليخبرني بأنه وحده الصديق الصدوق الذي لن يتخلى عني مهما حدث، وأنه عني لن يبتعد مهما طلبت منه الانصراف، فهو وحده من يحبني بصدق وكل من حولي يريدون لي الشر، هل تعلم يا جهاد! إن أشد ما آلمني أن كل من استشارتهم أمي من الأطباء والعلماء والمختصين لم يصدقوا شيئا مما أمر به، أو حتى قالوا بأنه حقيقة فكلهم قد أنكروا هذا الهراء، وقالوا إنها مجرد أوهام سوف تكبر وتزول حتى تنساها نهائيا، وتجاهلوا كلهم بأن ما أراه وأسمعه لم يكن يوما وهما بل كان حقيقة أشعر به يحاصرني يوما بعد يوم، وساعة بعد ساعة، حتى بات جزءا من تركيبتي التي صورتها، جزءا من حياتي التي أحياها تؤثر على قراراتي وعلى طريقة حياتي التي أعيشها.

سوف أتوقف اليوم عن الكتابة فحديثي قد طال كثيرا وروحي ما عادت تحتمل هذا الوجع الذي عادت لتعيشه مجددا بين حروف الكلمات.

كن بخير يا جهاد وحارب من أجل نفسك ومن أجل من أحبك يوما وآمن بك وبقضيتك بنفسج))

ربما... علاجك دوائي

خرجت من غرفة الطبيب بابتسامة قلقلة تحمل بين بيدها صورا لأطفال صغار، براءتهم واضحة من طريقة ضحكتهم ووقفتهم، الولدان واقفين على الطرف وبالوسط أختهم الصغرى يحيطونها بأيديهم، وكأنهم يخبرون كل العالم بأنهم سوف يحمونها من الأشرار، كان منظرهم يدمي القلب حزنا على فراقهم، فهم قد ذهبوا ضحية متهور طائش لم يبالي سوئ بنفسه ومتعته، يا الله كن بعون أمهم وصبر قلب والدهم على فقدهم، كانت متعاطفة معهم بشكل كبير فهي أكثر الناس علما بألم الفقد وبذاك الوداع النهائي، وداع بلا عودة أبدا وداعا تعلم معه بأنك فقدت حياتك ولكنك ما زلت تتنفس وتمضي في هذه الدنيا بخطوات ميتة.

ولجت غرفة كاترينا بهدوء محاولة ألا تثير بقلبها الخوف والتوتر، فهي منذ أسابيع وباتفاق مع طبيبها يحاولون أن يساعدوها لتعود الحياة إلى روحها المتألمة، ليس فقط من أجلها بل من أجل زوجها الموجوع مثلها وأكثر، ذاك الذي يحاول جاهدا الصمود في وجه الوجع، في وجه الفقد، فلا يسمح له بأن يكسر صموده وثباته، تراه كل يوم خارج من غرفة زوجته باكيا يجلس في الممر يشكو للكل ما فعله رحيل الأولاد به، بعدها يبكي فقدانهم الذي كان مفاجأ وبلا وداع، ويرثي فقدان السند والجدار الذي كان يحتمي به بانهيار زوجته الحبيبة ورفيقة دربه، فهي دوما ما كانت سندا له وعونا بدعمها وتصبيرها له، ولكنه اليوم يجهل ما عليه بدونها وبدون صوتها وحضنها ودعمها له، بنفسج التي كانت يوما قد درست تخصص علم النفس بعد تخرجها من الكيمياء الجنية، فهذا كان حلمها الذي لم تتخل عنه أبدا، تعلم بأنها حين درسته قد ناضلت كثيرا فهي لم تخبر الكثير ممن حولها بأنها تدرس فرع جديد في الجامعة، فمن عارضها على دراستها له وهو تخصصها الأول، هل كان سوف يوافق على أن تدرسه وهو تخصصها الثاني، لهذا فإن الطبيب حين كان يقلب في صفحات ملفها ووجد هذه المعلومة وقد وجد بأنها كانت من المتفوقين على دفعتها، قرر بأن يجرب

معها طريقا أخر بالعلاج، بأن يجعلها مجبرة على ممارسة مهنتها التي تحب وتفضل دون أن تشعر، لهذا بدأ يخبر الممرضات عن أهمية الحديث معها عن حالة كاترينا، وعن كل تداعيات الحالة سامحا لها بأن تتخذ قرار المساعدة وحدها، وهكذا يكون قد ضرب عصفورين بحجر واحد، حين دخلت غرفة كاترينا كان الطبيب يقف قريبا بعيدا عنهما، يشاهد مريضتاه معا أملا بأن يكونا الدواء لبعضيهما، فكاترينا كانت ترفض دخول الطبيب والممرضات على غرفتها ولكنها سمحت لبنفسج بالدخول، لأنها شعرت براحة كبيرة بوجود بنفسج حولها، والطبيب يعلم بأن أفضل من يعالج الوجع من أحسه يوما وذاق مرارته.

جلست إلى جوار كاترينا على السرير وهي تقول: كيف حالك ؟ كانت متيقنة أنها لن تحصل على جواب؟ ولكنها تحب أن تحادثها لتشعرها بأنها مهتمة بها، وبأن هناك من يهتم لأمرها في هذه الحياة، بعد صمت دام لدقائق قليلة أخرجت بنفسج صور الأطفال من جيبها ووضعتهم أمام كاترينا بصمت مترقب لكل ما قد يحدث، كانت تنتظر لأى ردة فعل حتى لو بسيطة، ولم يخب ظنها؛ إذ أن كاترينا خطفت صور صغارها وهي تتحسس وجوههم كأنهم أمامها، وكأنها حقا تتحسس أجسادهم الآن ثم ابتسمت وهي تناديهم بأسمائهم، وتداعب وجوههم بشوق كبير، كانت بنفسج تنظر إليها وفي عينيها دمعة حبيسة تحاول جاهدة إخفاءها حتى لا تتأثر وتفشل بمهمتها هذه، بعد وقت قليل تعالت صوت ضحكات كاترينا وبدأت تضحك بهستيريا وهي تنادي صغارها، حاول الطبيب التدخل وحقنها بإبرة مهدئة إلا أن بنفسج منعته بحركة من يدها، ونهضت من على السرير وهي تخاطب كاترينا قائلة: أنظري إليهم كاترينا لو أنهم أحياء ما كانوا ليرضوا بما تفعلينه بنفسك، ما كانوا قبلوا بأن تدفني نفسك هنا وأنت ما زلتي على قيد الحياة، وما كانوا رضوا بأن تعذبي والدهم بهذه الطريقة، كاترينا هيا لقد حان الوقت لتنهضي من موتك الذي اخترته وتوقفي أنانيتك هذه، فأنت بتصرفك هذا تقتلين كل من أحبك يوما، وتجعلينهم بلا حيلة أو قوة، إنك تقضين على كل ما هو جميل في حياتهم، فهيا كاترينا أنظري للعالم من حولك، كم هو رائع وجميل حتى لو فقدتي أحد أحبائك فهل سوف يتوقف العالم بأسره حتى تنتهي من رثائك هذا؟ لا بل سوف يبقى العالم فاتحا ذراعيه داعيا إياك بأن تأتي وترين جماله الذي لا ينتهي، هيا كاترينا

كفاك رثاء لنفسك وانهضي ليرى العالم كله كم أنت قوية وكم أنت تستحقين هؤلاء الأطفال الرائعين، هيا كاتي هذه فرصتك الأخيرة لتثبتي أنك تستطيعين تحمل المسؤولية.

صرخت كاترينا بأعلى صوتها: كفى أصمتِ يا فتاة، فأنتِ لا تعرفين بما أشعر به، لا تعلمين كم فقدهم موجع وهم من كانوا لي كل الحياة وسبب الفرح، هل تعلمين كم هو سهل أن تقولي هذا الكلام وأن تعيدي كل ما حفظتيه من الكتب والمجلات، ولكن لو تعلمين كم هو صعب تنفيذه لصمتي الآن وتركتيني وحيدة؟ آه لقد ظننتك سوف تفهميني بصدق ولكنك أثبتي بأنك طفلة مدللة لا تفهمين من الدنيا شيئا، لا تدركين مقدار الألم الذي أشعر به ومقدار الخواء في قلبي.

بدت كاترينا بحالة من اللاشعور وهي تصرخ على بنفسج داعية إياها للخروج دافعة إياها بيديها المرتجفة وهنا لتغادر الغرفة، صابة عليها من السباب ما يشيب له شعر الرأس، كان صوتها مبحوح من شدة البكاء والصراخ، وقواها بدأت تنفذ من كل هذا الجهد، ولكنها تحاول أن تتماسك ببقايا طاقتها، حاول الجميع الدخول ولكن بنفسج وبحركة من يدها منعت أحدا من الدخول عليهما قاطعين هذه اللحظات المهمة بالنسبة لكاترينا، فإما أن تعود لحياتها أو أنها تفقدها للأبد بعد الآن، لهذا هي كانت مصرة على إعطائها الفرصة لتعود لحياتها السابقة، رفعت يديها بنفسج محتضنة كاترينا التي تقاومها وتضربها في البداية حتى نفذت طاقتها لتنهار باكية في أحضان بنفسج وهي تشكو لها وجع الفقد الذي تشعر به، وجع الإهمال وطيش شاب حرمها كل حياتها وأخذ منها ضحكات أطفالها، تشكو لها وتبكي كطفلة صغيرة وبنفسج تحتضنها سامحة لها بإفراغ كل ما في جعبتها من آلام، في هذه الاثناء دخل الطبيب إلى الغرفة وبيده إبرة مهدئة، غرزها في يد كاترينا ليعطيها فسحة من الراحة بالنوم، حتى لا يصيب عقلها شيء بعد ما مرت به، وقبل أن تغفو كاترينا نظرت في عيون بنفسج وهي تقول: أين جون؟ أريد أن أراه لا أحد له سواي.

لتغط بعدها بنوم هادئ عميق.

رفعت بنفسج يديها لوجهها لتصطدم بالدموع التي كانت تملأ خديها دون أن تشعر بهم، كانوا يتساقطون من عيونها بدون أن تشعر، وكأنها كانت تواسي نفسها أيضا وهي تواسي

كاترينا، وكأنها كانت تخاطب نفسها أيضا داعية لها بالتحرر من ماضيها كله، مسحت دموعها وهي تحاول أن تبتسم لتنهض، مسكها الطبيب من كتفيها مخرجا إياها من الغرفة، وما إن أغلقوا الباب حتى أدارها إليه سائلا عن حالها؟ كانت نظرات بنفسج معلقه بالفراغ وهي تجيبه قائله: يحتاج الإنسان في بعض اللحظات لمن يقسو عليه، لمن يجرحه ويوجعه لا لمن يحتضنه مطبطبا حانيا، فحتى تخرج روحك من بين الركام كما العنقاء تحتاج للموت أولا ثم تعود للتحليق من جديد كطائر غر صغير.

كان الطبيب يتابع حركاتها وكلماتها بهدوء، وابتسامة الأمل تعلو شفتيه فهو على يقين بأن روح بنفسج المقاتلة قد بدأت بالظهور مجددا، وهذا سوف يكون سببا في إسراع شفائها الذي بات قريبا جدا، وهو كطبيبها يعلم هذا جيدا جدا، أخرج من جيب معطفه رسالة ملوحا بها أمام عيونها ليخرجها من حالة الصمت والسرحان التي بدأت الدخول بها والغوص في الذكريات المريرة، وهو يقول: واحد.. اثنــ ولم يكن هناك سبب لأن يكمل فالرسالة خطفت من يدها وهرولت بنفسج إلى غرفتها تسابق الريح لقراءتها كطفلة حصلت على حلواها المفضلة.

((بنفسج كاتبتنا الصغيرة

إن حسن من عائلة الخالد، له أخ وحيد اسمه يحيى وخمس أخوات يصغرنه بالعمر كان يسكن بحي الباشورة قرب ساحة العاصية.

أما بخصوص خاطرتك التي أرسلتها ليقرأها نضال فقد أعجب بها كثيرا، وشعر بمقدار الوجع والحزن الذي يسكن قلبك وروحك رحم الله خالك وجمعك به في عليين، بل هل أقول لك شيئا كل من بالمهجع قرأوا ما أرسلتي وقد نالت إعجابهم كثيرا، فكلماتك البسيطة السلسة قد لامست قلوب كل من قرأها، وكأنها تحكي ما في قلوبهم وأرواحهم، فلكل واحد منا هنا قصة قد تختلف بالمضمون عن الأخرى ولكنها تتشابه بالوجع، فالكل قد فقد يوما شخصا حبيبا وغاليا على القلوب، لقد أبدع قلمك من جديد في وصف ما عجزت القلوب عن وصفة وعجزت الألسن عن الإفصاح به، فهنيئا لك هذا القلم المبدع.

اليوم يا بنفسج سوف أسرد لك حكاية جواد، ذاك الرجل المظلوم الذي قيد للسجن ظلما لا لشيء فعله أو شيء قاله، بل قيد بسبب أخوه الأصغر منه عمرا، ذاك الذي كان يصغره بسنوات قليلة فقط، كانوا متشابهين جدا لدرجة أن الجميع اعتبرهم توأما، فهم لهم أسماء متقاربة "جاد وجواد" لم يكن بمقدور أحد أن يفرق بينهما لهذا يوم عجزوا عن أخذ جاد أخذوا جوادا بدلا عنه، ووضعوا كل التهم التي كانت موجهة لجاد له، فهم عندما واجهوه بالتهم الموجهة إليه أنكرها كلها وشعر بالصدمة التي أعجزت لسانه عن النطق، وهذا جعلهم يثبتون التهمة عليه مدعين بأن السكوت علامة الموافقة والعجز عن الاعتراف، مع أن المفاجئة كانت ظاهرة على وجهه إلا أنهم غضوا الطرف عنها مدعين بأنه متفاجئ من قوتهم في الحصول على كل هذه المعلومات، فهم كانوا مصرين على ألا يثبتوا فشلهم، كان مصدوما من كل تلك الأسماء التي ذكرت والمعلومات التي قيلت فهو لم يسمع بها يوما في حياته، فلقد كان جوادا ومع كل الشبه الذي بينه وبين أخيه جاد، إلا أنه كان أضعف منه، فلم يكن شجاعا حتى يتمكن من أن يحمل السلاح ليقاتل، لا بل كان يرتجف خوفا من منظر السلاح حتى لو من بعيد، فهو قد كان أبسط من كل تلك التعقيدات والصراعات التي كان أخوه يخوضها، فأخوه كان المحارب وهو المسالم الداعي للتصالح والسلم الراضي بالقليل، ولكن كل شيء تغير فحين قادوه إلى السجن وبدأوا بتعذيبه حتى يعترف بكل ما وجه له من تهم، وهو كان يحلف لهم بأنه لا يعلم شيئا وأنه لم يسمع حتى عن كل تلك الأسماء ولا حتى يعلم شيئا عن التنظيم بأسره، صوته لم يجد صدى عندهم، فهم لم يصدقوه ولم يتهاونوا في تعذيبه كل صباح ومساء، حتى حرم النوم لأيام متواصلة، وجلس في الحبس الانفرادي لأشهر طويلة ومع هذا لم يستسلم أو ييأس وكأن الله قد أنزل عليه قوة عظيمه لم يكن يعلم بأنه يملكها، ولا حلم بها يوما ولكن بالنهاية قد أثبت بأنه يشبه أخاه حين وضع في موضع صعب، فظهر المقاتل الداخلي وصار يقاتل ويجابه الجميع، ثبت جواد ولم يتمكن حتى من الوشاية بأخيه أو بالأماكن التي كان أخوه يرتادها داعيا له بالسلامة، والبعد عن هذا الذل والقهر الذي يحياه داخل السجن، وبعد سنوات طويلة من التعذيب والإهانات جاؤوا إليه معتذرين فهم قد اكتشفوا الخطأ الجلل الذي وقعوا فيه، وقالوا عذرا هي تشابه أسماء لا

أكثر، وبقي في السجن إلى يومنا هذا بدون محاكمة أو تهمة توجه إليه، وكأنه أصبح رقما منسيا وشخصا لا وجود له في هذا العالم، ولم يهتم به أحد، وها هو ما زال يمضي أيامه بقوة وثبات قائلا: لو قال لي أحدهم في ما مضى أني سوف أواجه كل ما واجهة في ثبات وقوة وبدون خوف لضحكت عليهم، ولم أصدقهم حتى مدعيا بأنهم مجانين يهذون بأشياء لا أصل لها، وقال بأنه قد كان لا يحتمل أن تشكه إبرة فكيف بكل هذا التعذيب والألم؟

إن الحياة يا بنفسج تكشف فينا ما كنا نجهله عن أنفسنا، ففي كل موقف صعب نواجه في هذا الحياة نكتشف كم الطاقة التي كانت مختبئة داخل أجسادنا وأرواحنا ففي كل يوم نعيشه أو حتى كل ثانية نحياها نكتشف شيئا جديدا في دواخلنا، وكأن الله يريد أن يختبرنا ليخبرنا بأننا نستطيع فعل المستحيل فقط إن كنا واثقين بأنفسنا أكثر وبإيماننا بأنفسنا، ولو كنا أكثر تمسكا بديننا.

صغيرتي دعيني أخبرك شيئا فأنا عندما تلقيت خبر وفاة شذا لم أكن أعتقد بأني سوف أستطيع أن أستمر في هذه الحياة، وبأني سوف أمضي بصبر وعزيمة في هذه الدنيا دون أن أنهار وأصرخ، إلا أنني وجدت نفسي استمد قوتي من ياسمينتي العطرة، فواجهت الحياة بقوة وثبات، ولم أسمح لليأس أن يصيبني أو أن أعتزل العالم، وهكذا حتى ماتت ياسمينتي فوجدت فيني القوة لأصبر على فقدهم وفراقهم طالبا من نفسي بأن أكون أكثر فعالية في هذا المجتمع، فأغيره للأفضل عسى أن يصبح هذا البلد يوما أكثر أماننا وسعادة للأجيال القادمة، لهذا صرت أثور على الظالم الذي كان سببا في وفاة زهرتي ياسمينتي الحبيبتين، فهكذا هي الحياة يا بنفسج تمضي بكل ألمها وأمالها، فهي تمتص منا الكثير وتهدينا أيضا الكثير، والحكيم فينا من يوازن بين ما تأخذ منه الحياة وما تعطيه لنا.

صغيرتي الحزينة بنفسج

افتحي المجال لقلبك وعقلك وتحدثي كما تشائين، وعن أي شيء تريدين إن كان هذا سوف ينزل على قلبك بعضا من راحة، ويمتص ذلك الألم الذي تعشعش في داخلك، دعي روحك تتحدث حتى تخرج للعالم أجمل وأكثر قوة وثبات، واسمحي لعقلك ببعض استراحة ليواجه الدنيا بقوة أكبر وحكمة أجمل، ويعود كما كان بل أفضل حالا، دعي لروحك المساحة التي

تحتاجها هنا لتبدع وتنفض عنها غبار الوجع، فهنا لا قيود تمتلكنا، ولا داعي للخجل فأنا لن أحاكمك وأنت لن تحاكميني، بل سوف تكون هذه مساحتنا التي نبوح بها دون أن نقيد أنفسنا بشيء.

جهاد))

أمين الوطن

ما زالت تلك الورقة تنتقل بين الأيادي من يد لأخرى يتأملها كل واحد بمشاعر مختلفة عن الآخر، كل واحد يتأملها بصمت وحزن يشع على الوجوه، ربما الكلمات لا تحمل من ذاك الوجع الكثير، ولكنها تحمل وجع قد عاشوه جميعهم بتفاصيله الكثيرة من ألم وحزن كبير، فلكل واحد منهم فقيد قد رحل دون وداع، ولم يخلف خلفه الكثير من الذكريات، فهم لم يشاركوا في آخر أيامهم، كان رحيلهم وهم يجلسون خلف القضبان يتلمسون طريقهم بحزن وأمل، وضع عادل الورقة في جواره وهو يقول: كلما قرأت تلك الكلمات اكتشفت فيها شيئا مختلفا يكمن خلف الحروف، حقا أبدعت الكاتبة في وصف الإحساس وكأنها رسمت ما يجول في قلوبنا.

ابتسم جهاد في وجهه وهو يقول: كن على ثقه يا عادل بأن مدير السجن أو حتى المخابرات والسجانين لا يملكون قلما مبدعا كهذا القلم، يعبر بتلك الطريقة البسيطة والسلسلة، تأكد يا صديقي بأن خلف تلك الرسائل شخصا حقيقيا، فتاة لها إحساس مرهف وتملك من الوجع الكثير ليجعلها بهذا الابداع والكلمات الرقيقة.

انضم حسن إليهم ليجلس في جوار عادل ويسحب الورقة إليه وهو يقول: ألم تملوا بعد من الحديث بنفس الموضوع كل الوقت؟ كل ما أتوق له معرفة سبب سؤالها عن اسمي الكامل ومعلومات كامله عني.

شاركهم نضال القول: أما أنا فأتمنى لو تنشر مقالي في مكان ما وترسله إلى أبي، فأنا أريد معرفة ردت فعله عسى أن يسامحني وينتهي هذا الخصام.

ابتسم جهاد قائلا: أما أنا فأنتظر رسالة جديدة منها بكل شوق

انضم إليهم بعض السجناء وهم يتناقشون حول القصة والخاطرة التي بين أيديهم، فهم كانوا بحاجة إلى أي شيء من العالم الخارجي حتى يتمكنوا من التمسك به كالأمل، حتى لو كانت الكلمات من كاتبة صغيرة مجهولة ما زالت تشق طريقها بصبر، كاتبة معظمهم يشكون

فيها وبنواياها ولكنهم يتمسكون بالشيء الإيجابي بالموضوع ويتركون ما خلف ذلك للزمن، بقي النقاش والحديث بينهم لا ينقطع ولا يتوقف وكان أكثر من قام اليوم بالحديث هو جهاد، شيء غريب ولكنه جميل بنفس الوقت كل رفاقه استغربوا حالته، هذه فهو كان مفعما بالطاقة وكأن الحياة قد دبت به فجأة.

وفي وقت لاحق من النهار دوى صوت أحد الحراس ينادي: جهاد أحمد! رسالة.

نهض جهاد من بين رفاقه وهو يلوح لهم بطريقة مسرحية مرحة، كانت غريبة على شخصيته الهادئة ولكنها جميلة بطريقة رائعة، فهو منذ زمن قد صار الصمت رفيق دربه. كان جهاد لا يعلم ما به إلى أنه متأكد بأن هذه الحالة لم تكن تأتيه إلا وهو برفقة أمين، فهل يا ترى سوف يراه قريبا؟ أم أن هناك شيئا سوف يحدث؟ فتح جهاد الرسالة ليجد قصاصات ورقية من جريدة بدا عليها القدم وكان العنوان "أمين الوطن" نبض قلبه بسرعة وصار جسده يتعرق وقد صار يأكل الحروف بنهم.

"يجلس في مقهاه المفضل أمام البحر مباشرة بين يديه سيجارة، وأمامه تناثرت بقايا سجائر عديدة تحكي الكثير من القصص المختلفة، وعلى نفس الطاولة وضع أكثر من خمس فناجين قهوة مرارتها كانت كمرارة أيامه التي عاشها، كان في انتظار ذاك الصحفي الذي أراد أن ينشر قصته في مجلته، كل الأهل والأصدقاء أشاروا عليه بنشر القصة؛ متأملين إن قص ما حدث معه بالماضي تتحسن حالته النفسية قليلا، ويعود كما كان مفعما بالطاقة وتعود شعلة الأمل التي عاشت معه سنوات وانطفأت لينطفئ معها كل شعور بالمسؤولية تجاه الوطن.

من بعيد لمح الصحفي مقبلا عليه يحمل حقائبه والعديد من الأشياء، وقف مستقبلا إياه وهو يبتسم له، سلم عليه ليجلسوا بعدها على الطاولة يسألون بعضهم عن الحال وتلك الأسئلة الروتينية، حتى بدأ الحوار:

قال الصحفي:- متى بدأ نشاطك السياسي يا أمين؟

نظر أمين إلى البحر وهو يقول: بدأت رحلتي مع النضال وأنا في سنتي الأولى بالجامعة حيث كنت فتى طموحا و مندفعا جدا، كنت وبعض أصدقائي نرفع شعارات الإصلاح في

مجتمع عم فيه الفساد، كنت أنشر بين طلاب الجامعة قصص الفساد والرشاوي، فقد كنت حريصا على أن يحبوا الوطن أولا حتى ينتفضوا لأجله، كنت دائما ما أخبرهم عن فضل الوطن وعن حبه لنا وحبنا له، كنت أبث فيهم الوطنية والحماس حتى ينبع النضال من حبهم للوطن لا من أجل شخص أخر.

قال الصحفي:- ماذا كان هدفك من تلك المنشورات؟ هل شخصية كما اتهمك العديد؟ أم أنها حقا من أجل الوطن فقط؟ وهل كنت تنوي أن تشعل الثورة أم كنت تحاول تغير حال البلد فحسب؟

ضحك أمين قائلا:- عن أي مصالح تتحدث؟ فأنا كنت أبحث عن سلامة البلاد؟ كنت أريدها خالية من الخونة متميزة بكل شيء، يشار لها بالبنان كنموذج مشرق للبلاد العربية كلها، كنت أحلم بالكثير لأجل الوطن، ولأجل الشعب المسكين المنهك، من كثرة الفقر والإذلال ومن هنا بدأت رحلتي السياسية مع الوطن ولأجل الوطن، لم أفكر بادئ الأمر بإشعال ثورة أو حرب، ولا حتى تغير الحاكم، كنت أريد إصلاح الفساد فحسب، فلم يخيل إلي أن الأمر سوف يتطور لهذه الدرجة بعد ذلك.

قال الصحفي:- ما الذي قمت به بالتحديد؟

قال أمين وهو ينظر إلى البعيد:- كنت أزرع في عقول الشباب حب الوطن، أزرع فيهم مصلحته والخوف عليه، الحرص على أهله وعلى الأجيال القادمة من بعدهم، كنت أقول لهم ماذا تركتم لمن بعدنا سوى الوجع؟ وهل هذه تركة تورث لأولادنا وأحفادنا؟ لم تبدأ معركتي السياسية إلى حين عاداني كل من حولي، وصرت هدفا لكل من أراد بالوطن السوء، فأصبحت بعدها بنظر الجميع خائنا للوطن.

قال الصحفي:- هل من الممكن أن تروي لنا قصتك من البداية؟

أجابه أمين على الفور: - كما ذكرت سابقا بدأت رحلتي حين كنت في الجامعة، حين بدأت بنشر حب الوطن بين الشباب، وعن حقوقنا في أرضنا وحقنا في الإصلاح ومحاربة الفساد ورفضه على أرض نشأنا عليها وكبرنا فيها، هذا حقنا وحق أولادنا من بعدنا، كنت أزرع هذا في عقول الشباب كنت أنا وبعض أصحابي الشباب نقيم المظاهرات واللقاءات لأجل

توعية الشباب بكل ما يحدث من حولنا، وبكل ما يدور في الخفاء بعيدا عن عيوننا و أنظارنا، فهم يسلبوننا حقوقنا وينتهكون مصالحنا دون أن يهتموا لنا، أو يفكروا يما قد يصيبنا، كنت أخبرهم عن كل ما سلب منهم دون أن يشعر أو يهتم بأمرهم أحد، كان الكل يعارضنا ولقد هوجمنا من الجميع حتى من قبل إدارة الجامعة التي وجهت لنا العديد من الإنذارات والتحذيرات، وكان أخرها إنذار بالطرد من الجامعة، ومن كان قد تخرج أو على مشارف التخرج قد منعوا من التخرج وسحبت شهاداتهم، وذات يوم كنا معتصمين في الجامعة اعتراضا على قرار طردنا التعسفي، فجاءت قوة من الجيش لاعتقالنا وقد تم اعتقالنا وبقينا في المعتقل لمدة شهر كامل، وحين خرجنا من هناك عدنا مطالبين بحقنا في الإعادة للدراسة، ومع هذا لم يمنعنا كل هذا من إيقاف نضالنا لأجل الوطن، فعدنا للنضال وعدنا لنستلم الإنذارات، فنحن لم نستسلم فقد بقينا نروي قصص الفساد في المجتمع لمدة سنتين كاملتين، كنا نحارب الجميع حتا جاءت السنة الثالثة وقد اعتقلنا فيها لفترة طويلة.

قاطعه الصحفي قائلا:- هل من الممكن أن تروي لنا قصة اعتقالك؟

قال أمين:- بكل تأكيد سوف تسمع مني اليوم كل ما تريد السؤال عنه، حين تم أخذنا من باب الجامعة مرة أخرى أدخلونا إلى غرفة التحقيق، أتعلم! كان هناك محققا مرعبا جدا، بدأ حديثه معنا بالشتائم والسباب والتوعد بقتلنا وتمزيقنا قبل ذلك إربا، يومها لم يسألنا عن شيء، ولم يسمح لنا بالحديث أصلا إذ أنه ومنذ دخلنا عليه كان يصرخ فينا فقط ويتهمنا بالخيانة وأننا عملاء لأعداء الوطن، لم يتحدث أحد منا بكلمة واحدة، كنا نسمع له ونحن صامتون منصتين له فقط، حتى مل الصراخ فأمر الجنود بأخذنا إلى غرفة التعذيب وهناك عذبنا لساعات طوال وبشتى أساليب التعذيب، حتى كاد بعضنا أن يفقد السيطرة على نفسه مقررا أن يعترف بكل ما يريدون حتى على الأمور التي لم يفعلوها، ظانين بأنهم سوف ينتهون من مسلسل التعذيب هذا، حتى جاءنا المحقق وهو يضحك علينا ويشتمنا قائلا: - أخيرا ستعترفون بأعمالكم وخضوعكم لأعدائنا يا خونة الوطن، وأخيرا سوف تعترفون بأنكم أحد المشاركين بالمؤامرة الكونية على وطننا الحبيب هذا.

أمر بعدها الحراس بأخذنا واحدا تلو الأخر إلى غرفة التحقيق، اليوم لن أقوم بذكر قصص رفاقي وما حدث هناك بل سوف أخبرك بما حدث معي فقط فقد كان أول سؤال طرحة المحقق كان: "لحساب من تعمل؟"

أتذكر جيدا ابتسامتي الساخرة يومها لأجيبه بعدها: أنا أعمل لحساب الوطن ولأجل الوطن فقط.

صرخ في وجهي قائلا:- أيها الكاذب المخادع قل لي من يدفع لك حتى تحرض شبابنا على وطنهم فتعيثوا به فسادا وتدمروه هكذا؟ من يريد منك أن تزرع الفتنة بين شعبنا؟ هيا أخبرني بكل شيء حينها فقط سوف أسامحك وأطلب تخفيف الحكم عليك.

قلت له ضاحكا:- أنا لا أزرع الفتن في وطني بل أنا أقوم بفتح أعين شبابنا على الكثير من الخونة في بلادنا، وعلى كثرة الرشاوي والفساد في حكوماتنا وبلادنا لهذا لن أصمت مهما حدث.

جن جنونه وقال: ماذا تقول يا هذا؟ أنت صبي صغير لم يكبر بعد، أتظن نفسك قادرا على تقييم بلادنا؟ من أنت حتى تطعن بإخلاص حاكميه؟ من سمح لك بأن تشكك بحبنا للوطن؟ كم أنت ساذج صغير يا هذا، هكذا فقط استطاعوا أن يضحكوا عليكم ويجعلوكم تعملون لحسابهم فتخونوا بلادكم وتقتلوا شبابكم.

بعدها أمر الجنود بأخذي إلى السجن بدون محاكمة أو حتى اتهامات واضحة قضيت خمس سنوات من عمري محبوس بين جدران السجن.

قال الصحفي:- هل تخبرنا عن معاملتهم لك بالسجن؟ وكيف كان الوضع هناك؟

هز أمين رأسه وهو ينظر للبعيد قائلا: كنا -أنا وخمسين سجينا- في زنزانة صغيرة لا تسعنا، فكنا ننام بها فوق بعضنا وكأننا خراف، أحدنا فوق الأخر وكنا في كثير من الأوقات نتبادل الأدوار فبعضنا ينام في أول الليل وبعضنا في وسطه والبعض الأخر في أخر الليل، ولم يكن بمقدورنا أن نجلس جميعنا مرتاحين، فكان بعضنا يقف والبعض الأخر يجلس وكانت الغرفة باردة ة جدا إلى حد التجمد شتاء، وحارة كنار جهنم صيفا، ولم يكن في الزنزانة سوى غطاءين أعطيناهم لأكبرنا سنا، رجلان قد تجاوزا الستين من عمرهما، وقد

كانوا معتقلين معنا بتهمة خيانة الوطن أيضا، كانوا يأتون لنا بالطعام والشراب مرة في اليوم فقط، وكان الاستحمام مرة في الشهر، يقتادوننا إلى غرفة التحقيق كل صباح وفي المساء، كانت لنا حفلة مع التعذيب، وحين يقولون حفلة فهم حقا يعنونها بالحرف الواحد، هكذا يجربون عليك الكثير من أفكار التعذيب حتى تبلدت أجسادنا وما عدنا نشعر بسياطهم على ظهورنا أو أقدامنا، وهكذا مضت خمس سنوات من عمري على هذا النحو والروتين، حتى جاء اليوم الذي انتظرته كثيرا وجاءني المحقق بخبر الإفراج عني من السجن بعفو من سيادة الرئيس، وقد طلب مني التزام حدودي وأن أبتعد عن ما لا يعنيني، وفعلا غادرت السجن مع ذكريات جمعت على مر الخمس سنوات؛ ذكريات عن التعذيب والألم، غادرت وأنا أكثر تصميما على أن أعطي وطني ما يستحق، نعم سوف أبقى أهتف حتى تتحرر بلادي من كل فاسد خائن لشعبه ووطنه.

قال الصحفي:- حدثنا عن فترة ما بعد السجن؟

قال أمين:- بعد خروجي بأسابيع قليلة بدأت مرحلة البحث عن عمل، وكان إيجاد فرصة العمل ضربا من جنون، فكما تعلم في بلادنا لا ينظرون إلى صاحب الكفاءة، بل إلى من يملك واسطة قوية، أو معارف من ذوي النفوذ، ففي بلادي لا ينظرون إلى الخبرات التي تملكها بل إلى من يسند ظهرك ويقف خلفك داعما، فكيف بالله عليك أجد عملا وأنا قد قضيت سنوات طويلة في السجن بتهمة خيانة الوطن والتعامل مع القوة الخارجية؟ ولا أملك حتى شهادة تؤهلني للعمل؟ بقيت بعدها أبحث عن عمل لمدة سنة كاملة كنت خلالها أبحث عن العمل وأكتب في المواقع الإلكترونية مقالات عن الوطن، عن الفساد الذي يزداد فيه يوما بعد يوم كنت أكتب عن الرشاوي، والوساطات والضحايا الذين قتلوا بصمت ودون أن يعرف بهم أحد، وقد قيدوا أن وفاتهم بسبب حادث سيارة أو سكتة قلبية، كنت أكتب عما يحصل في السجون في الخفاء بعيدا عن عيون الناس، فهؤلاء أرقام لا أسماء لها، ولا يعرف بوجودهم أحد حتى يسأل عنهم، كنت أريد أن يعلم الشباب بكل ما يحدث فيخشوا على أنفسهم ومستقبلهم ووطنهم، كنت أريد أن يفتحوا عيونهم من أجل أولادهم وأحفادهم، كنت أكتب خواطر ومقالات كثيرة في كل مكان أتمكن من الوصول إليه حتى جاء يوما قرأ مقالاتي

صاحب جريدة معارضة معروف، وقد قرر أن يضمني إلى جريدته لأكتب معه بدلا من أن أكتب في المواقع الإلكترونية فقط، ومن هنا بدأت رحلتي الجديدة مع النضال من أجل الوطن والحرية، فقد صرت أكتب لكل الشعب وليس للشباب وحسب، وصار صوتي يصل لكل صغير وكبير جالس في بيته حتى لو لم يكن يملك إنترنت أو لا يعلم كيف يستخدمه، وقد صار لي قاعدة شعبية كبيرة ينتظر الكثير مقالاتي ويبحثون عن صوتهم المفقود بين ما يخطه قلمي.

قال الصحفي مبتسما:- حسنا يا أمين سوف أختصر سؤالي بكلمتين فقط، وماذا بعد؟

قال أمين ضاحكا:- وماذا بعد؟ سؤال مختصر من كلمتين وإجابته طويلة، بعدها بدأت بتتبع خطوط الفساد في الوطن وأفضح كل شخصية لها يد في تخريب الوطن، إن كانت في الداخل أو الخارج، كنت أقوم بالكثير من التحقيقات دون أن أبالي بشيء فلم يكن عندي خطوط حمراء أو خوف يجعلني أتوقف، وكانت أول تحقيقاتي التي قمت بها عن ما يدور في السجون من تعذيب واضطهاد، عن عدد السجناء الذين يقتطون السجون دون أن يعلم بهم أحد أو يحاكموا، ومنهم دون أن توجه إليهم تهمة واحدة، يضيع عمرهم دون أن يكترث لهم أحد، وهكذا كانت انطلاقتي؛ فصرت أبحث خلف الكثير مما يحدث وما يتستر عليه المسؤولون ضاحكين علينا بكلمات وشعارات كاذبه، حتى صارت تأتيني العديد من رسائل التهديد والتوعد، لم أكن أؤمن على روحي وقد حاولوا أكثر من مرة اغتيالي، وقد تمكنوا من الدخول إلى مقر الجريدة التي أعمل بها ليعيثوا فيها فسادا مخلفين خلفهم دمارا شاملا ورسائل تهديد، كنا مجموعة مكونة من خمس شباب وصاحب الجريدة فقط، بقينا نصارع الدنيا يمينا وشمالا لأجل شبابنا، أصبحت مبيعات المجلة بارتفاع متزايد يوما بعد يوم، والحكومة قد استنفذت كل طاقتها لأجل كبت صوتنا، كانت تحاول جاهدة تكميم أقلامنا، وحين لم تنجح قامت بأخر شيء تستطيع فعله وهو إغلاق المجلة وسحب ترخيصها، ولكنها لم تتمكن من إسكاتنا، فنحن قد تابعنا عملنا بإصدار مجلة إلكترونية وصرنا نكتب من خلالها كل ما نريد، حاولوا أن يهكروا الموقع مرات عدة ولكننا كنا نعود لفتحه دون كلل أو ملل فبالعكس كانوا كلما حاربونا نزداد قوة وإصرار.

قال الصحفي:- هل كان كافيا بالنسبة لكم الكتابة عن طريق الإنترنت؟ ولم تحاولوا العودة للكتابة الورقية؟

أجابه أمين:- بعد أن عدت للكتابة على الإنترنت - ولكن بهذه المرة كان عدد قرائي أكبر، وكانت خبرتي قد ازدادت - بعدها أصبحنا أنا ورفاقي الصحفيين نقيم العديد من الأمسيات نتحدث بها حول مشاكلنا وهمومنا داخل وطننا الحبيب/ وكل ما نستطيع أن نقدمه، وصرنا نكتب لصالح العديد من الجرائد والمجلات، وبقينا هكذا حتى أتعبنا الحكومة وقد قررت إعادتي إلى السجن، ولكن هذه المرة بوحشية أكبر وحقد أعظم فمكثت بالسجن عشر سنوات.

قال الصحفي:- حين خرجت من السجن كنت مستسلما فلم تعد تكتب بأي مكان ولم تعد تحارب أحدا، ولا حتى تناضل من أجل الوطن، وكأنك قد فقدت الأمل أو استسلمت، فهل لك أن تخبرنا عن الذي حدث داخل السجن؟ فما الذي رأيته حتى كسر تلك الشعلة واطفأ فيك الحماس؟

قال أمين والحزن يكسو صوته:- حين دخلت السجن تفاجأت، كان المحقق أحد أصدقائي المقربين الذين كانوا قد حملوا معنا يوما شعارات ضد الظلم والخيانة، بل كان أكثرنا حماسا لأجل التغيير، وقد كان السجان الذي عذبني أحد من قد ضره الفساد بل فقد أحد من أهله ظلما، وكان رئيس السجن يوما مثلي يحلم بأن يطور الوطن ويطهره ممن يريدون به السوء، وقد راودني سؤال حينها كثيرا ما الذي غيرهم وماذا قد حدث معهم حتى صاروا هكذا؟

قال الصحفي مقاطعا:- وهل وجدت الإجابة عن سبب تغيرهم؟

قال أمين والدموع حبيسة عيونه:- نعم فلقد سألتهم السؤال الذي حيرني وجعلني أصارع أفكاري، وقد كان جوابهم صادما أكثر من كل ما خطر ببالي أجابوني ببساطة، مصلحتنا يا صديقي أهم من أي شيء لأننا إن بقينا نناضل من أجل الوطن كما أنت كان مصيرنا سوف يكون مثلك، فقل لي بالله عليك ما الذي استفدته أنت بعد أن ناديت لإصلاح الوطن كل هذه السنوات، هل انصلح الوطن أو تغير شيء، وطننا يا هذا لن يصلحه أمثالك ببعض شعارات

وبعض كتابات نقوم بها، لن يتغير به شيء أبدا بمقالات نكتبها وأحاديث نقوم بها، وطننا يريد الكثير حتى يصبح وطنا حرا، حتى يصبح خاليا من الخونة الذين باعوا ضمائرهم وعاثوا به فسادا، لهذا فنحن أبدا لن نكون وقودا لتلك الحرية، لهذا اخترنا اليوم أن نعيش سعداء نبحث كغيرنا عن مصلحتنا، فهذا كل ما نريده ونستطيع تحقيقه دون معاناة، ودون ذل مثلك ومثل أمثالك.

سقطت دمعة أمين مع هيجان موج البحر، وكأنه يرفض ما يفعله الكثيرون بوطنهم وتابع أمين قائلا:- سألتهم يومها هل هذه هي الحياة الكريمة التي كنتم تتحدثون عنها، مال وبيت؟ أين الكرامة؟! أين الحرية؟! أين الأحلام والأماني؟!

أجابوني يومها ضاحكين:- عن أي كرامة وحرية تتحدث، إنهما مصطلحات لن يبنوا لنا حياة مرفهة، تلك الكلمات سوف تجعلنا دوما سجناء ممن يبحثون عن عمل ومال، ممن يبحثون عن ثمن دواء لأولادنا وعن علاج لأهالينا، هذا إن كنا قد تمكنا من البقاء على قيد الحياة، وربما نصبح عالة على عوائلنا نمد الأكف مطالبين بالقليل والقليل من المال أو الطعام، راضين بأقل مما قد يقدم لنا، لهذا اخترنا أن نحيا بلا كرامة، ولكننا نملك المال والحياة الجميلة التي تليق بنا وبأولادنا.

صمت أمين لثوان طويلة بعدها نظر في عيون الصحفي قائلا:- أتعلم هذا الشعب غريب جدا يريد الكثير ويحلم بالكثير ولكنه لن يكون يوما قادرا على طلب الحرية والكرامة، لن يستطيع يوما تغيير حياته للأفضل أو تحرير بلاده من الطغاة، أتعلم أولئك المساكين لن يسامحهم أولادهم ولا أحفادهم يوما على ما يقومون به، لن يغفروا لهم تخليهم عن تراب وطنهم ليعيشوا مرتاحين منعمين، لأن واحدنا حين يقدم مصلحته على مصلحة الوطن لا يستحق أن يكون له وطن، سوف يجدون يوما أنفسهم وحيدين خارج أسوار الوطن، منبوذين ممن قالوا يوما بأننا لأجلهم صمتنا وبعنا ضمائرنا، ولو أنهم علموا بأن من سوف يخرجهم من الوطن لما فعلوا شيئا مما يفعلوه، فلست أنا ولا أنت من سيخرجهم بل أولادهم وأحفادهم الذين يحاولون أن يبنون لهم حياة كريمة على دماء وأحلام غيرهم، هم أول من سوف يثور على هؤلاء المتخاذلون.

قال الصحفي:- وماذا حدث لك بالسجن أيضا يا أمين؟

قال أمين:- لقد وضعت في زنزانة مع مساجين كان اليأس قد سكن زوايا قلبي، وفي عقلي سؤال يتعبني وماذا بعد؟ هل بعد كل هذا أجد أن الشعب أحب وفضل المال والشهرة على الوطن، فكر بنفسه ووضعها قبل الوطن، بالله عليك كيف تمكنا من التفكير بالحرية ونحن أنفسنا سجينين المال والمناصب، كيف يتحرر من سجن نفسه في إطار مصلحته؟ كيف يسلم من فكر بنفسه قبل أن يفكر بتلك الأم الثكلى، والزوجة الأرملة والاولاد الأيتام؟ فكرت كثيرا، فكرت لأيام وشهور طويلة متسائلا كم أضعت من عمري لأجلهم ولأجل حياة كريمة ظننت بأنهم يستحقونها، وفي النهاية لم أجد فائدة جلست شهرا كاملا لا أتحدث مع أحد، كل تفكيري منحصرا بشيء واحد، هل حقا نستحق ما يحدث لنا؟

بعد مرور شهر جلس بجواري رجل مسن كان وجهه مشرق بابتسامة لا تختفي أبدا، على ملامحة سمة الراحة والسماحة، عندما تنظر في عيونه تشعر بالراحة النفسية، قال لي بصوت حازم لا يقبل الاعتراض "يا بني أعلم ما تمر به اليوم جيدا فأنا يوما من الأيام كنت في سنك وقد كنت مفعما بالحياة كنت أحلم أن أحدث تغيرا في وطني، كنت أحلم وأحلم بأن تكون بلادي متميزة بكل شيء، كنت أريدها مثالية بكل المعايير، أتمنى الكثير حتى أصابني احباطك هذا وكانت عيوني خالية من الحياة كعيونك بالضبط ، حين علمت كم نحن شعب متخاذل خانع، وبأننا نحتاج أولا لنحرر أنفسنا حتى نتمكن من تحرير بلادنا، لهذا يا بني ثق بأنه سوف يأتي يوم قريب جدا نتحرر من قيود أنفسنا ومن شرور أفكارنا، سوف نتغلب على الخنوع الذي يسكن دواخلنا وسوف نفك لجام أفواهنا صارخين بوجه من ظلمنا بأن اخرس وارحل عنا بعيدا، وتأكد يا بني بأن هذا اليوم قريب أراه أمامي هكذا كما أراك، فإياك واليأس يا صغيري.

حينها تلفت لأنظر إليه وأتعمق في عيونه متسائلا:- من أخبرك بقصتي يا عماه؟

أجابني بابتسامة مشرقة:- لم يخبرني أحدا بقصتك ولكنك يا بني تشبهني كثيرا، فأنا قد كنت أحمل يوما نفس تعابير وجهك ونفس انطفاءة عيونك، وجهك هذا قد أخبرني كما أخبر العالم من حولك بما يحدث في دواخلك من صراعات، صدقني يا بني ذات يوم منذ سنوات

كنت أنا من يجلس جلستك هذه، وقد صمت لمدة شهر أو أكثر حتى جاءني رجل كبير في السن، يشع النور من وجهه، وقد نصحني بألا أسمح لليأس بالسيطرة على قلبي وروحي، قال لي يومها صدقني يوما سوف تتحرر البلاد والعباد من هذه العبودية

سألته بيائس:- متى يا عمي سوف نتحرر؟ هل بعد أن يحتل العدو أرضنا كما احتل عقولنا؟ هل بعد أن يعيثوا في الأرض الفساد كما عاثوا بأرواحنا؟ هل بعد أن يغتصبوا أرضنا وعرضنا وشرفنا سوف ننتحر؟ متى يا عمي قل لي هل حين نرى البلاد ذليلة مكسورة الخاطر دامعة العين يحكمها أعدائنا؟ متى نتحرر وقد وصل بنا الحال اليوم بأن يقتل الأخ أخاه، والابن أباه؟ وقد صار الجار لا يأمن جاره فهو ربما سوف يكتب به تقريرا يودي به إلى الهلاك، والسبب خلاف بسيط أو ربما فقط لأنه لم يحبه أو لم يتوافقوا سويا، أه يا عماه متى نتحرر ونفوسنا تحتاج للكثير لترتقي وأرواحنا تحتاج لسنوات وسنوات حتى تصفو وتطهر؟

ابتسم في وجهي قائلا:- عما قريب يا ولدي، صدقني سوف ينفجر هذا الشعب يوما، فهو لن يحتمل أكثر، فالجيل القادم أبدا لن يتحمل ما تحمله جيلنا، لهذا سوف تأتي أيام ترى فيها جيلا محاربا ثائرا على كل شيء تفاءل يا بني

قاطعه الصحفي قائلا:- معذرة هل تسمح لي بسؤال خارج حوارنا هذا، وهل حقا تفاءلت أنت بعد تلك الكلمات، وهل أثرت بك بحق؟

نظر أمين للبحر الذي تعلوا أمواجه قائلا:- سوف أكون معك صريحا، لا أنا لم أتفاءل، كنت أعلم لما؟ لآن من يطالب بالحرية يوما هو من سوف يكون أول المتبرئين منها حين حدوثها، فنحن قوم نعلم جيدا كيف نتاجر بالمفقود لنكسب، فكل واحد يبحث عن مصلحة مختلفة، هناك من يبحث عن المال وهناك من يبحث عن المناصب والجاه، لهذا حين يستلم أحدهم منصبا سوف تراه قد نسى كل كلمات الحرية التي طالب بها، وقد باع كل الشعارات التي كان يهتف بها ويرفعها ذات وقت، وسوف يبدأ باستعباد الناس، فنحن نحتاج لسنوات طويلة جدا قبل أن نبدأ بالتغير، لا يمكنني أن أنكر بأنه يوما سوف ينفجر شبابنا وسوف يثورون مطالبين بالكثير والكثير، منهكين من كثرة الذل والاستعباد، ولكن حينها سوف تجد

من يكتم صوتهم ومن يقتل أحلامهم وآمالهم، أتعلم من سوف يكونون؟ لن يكونوا سوى أصحاب المناصب ودعاة الحرية الذين صدقهم الشباب ومشوا خلفهم.

قال الصحفي:- حسنا يا أمين دعنا نعود لحوارنا فاليأس قد سيطر كثيرا عليك، أخبرنا متى خرجت من السجن بل وكيف بالأصل خرجت فقد كان خروجك مفاجئا ومستنكرا من الكثير؟

ضحك أمين قائلا: لم يكن قرار خروجي صادما لكم فقط، بل كان صادما لي أكثر منكم جميعا، فلقد جلست بالسجن لعشر سنوات كان اليأس قد بدأ يتمكن مني يوما بعد يوم، فلم أجد أي شيء يدعو للتفاؤل أبدا، فحتى المسجونين الذين قد سجنوا لأنهم ضد النظام لأنهم قد ناضلوا يوما للتخلص من فساده، قد صار منهم من يبرر تصرفات وأفعال الحكام، وقد صار يؤيد كثيرا من أقواله وتحركاته، حين جاء يوم خروجي من السجن كان وكأنني ولدت من جديد فأنا كنت محكوما بالمؤبد، يومها قالوا بأنه جاء عفو من الرئيس، عفو لم يخرج به غيري من السجناء السياسيين وكان الباقين كلهم أحكامهم أحكام بسيطة جدا كغسيل الأموال وتجارة المخدرات، ولقد بقي سبب خروجي الحقيقي من السجن مخفيا عن أعين الجميع لا يعلمه سوى القلة القليلة جدا ممن كانوا على إطلاع بالأمر مباشرة، وقد قيل لي يوما حرصا على من كان سبب خروجي وعلى من ناضل لأجلي كثيرا لهذا سوف أبقي الموضوع سرا في قلبي، ولكن ليكن لديك علم بشيء هناك دائما من يحبك بصدق، من يؤمن بك بحق، حتى لو كان لم يراك يوما أو يسمع أراءك منك مباشرة، بل سوف يكون معك قلبا وقالبا حتى بعد سنوات طوال كثيرة، أتذكر جيدا ما قاله لي المحقق حينها، قال وهو ينظر إلي "أنظر كم رئيسنا عظيم فقد عفا عنك مرتين، فلننظر هل سوف تعود لتتهمه بالخيانة مجددا و تتلاعب بعقول شبابنا وأحلامهم ومستقبلهم، هل ستعود لتطالب بالحرية بعد أن منحك إياها رئيسنا؟"

كان جوابي حينها: لا لا تقلق لن أطالب بالحرية ولن أعود للسلك السياسي مجددا، لن أعود لما كنت عليه، فإن كنت أنت ومن يشبهونك ممن سوف تقرأون لي وممن سوف تؤيدوني لأراكم بعدها أول المتخاذلين الذين سوف تؤيدون النظام وتصفقون له وسوف تمسكوني

بأيديكم لتدخلوني السجن وتعاقبونني على حبي وخوفي عليكم وعلى مصلحة اولادكم واحفادكم القادمين.

قال الصحفي:- إذا ماذا فعلت بعد خروجك من السجن بما أنك قد قلت بأنك لن تعود للسياسة مجددا؟

ابتسم أمين قائلا:- بعد خروجي من السجن بدأت أبحث عن عمل، ولكن هذه المرة كنت أبحث بعيدا عن درب السياسة، فأنا بصدق ما كنت بقادر على أن أعود للسياسة ولتلك الصراعات الكبيرة وقد أنهكتني السنوات وأخذت مني كل ما لدي من طاقة، ومع هذا لم أتمكن من أن أرضى بكل ما يحدث فكان عند كل نقاش مع من حولي كنت أقول ما أؤمن به، حتى شباب الحي الذي كنت أقيم فيه كانوا يحبون أن يسمعوا آرائي السياسية وكانوا يناقشونني كثيرا، أما عن العمل فلقد وجدته في تنسيق الزهور في مكان بعيد قليلا، يملكه عجوزان قد بلغ بهما العمر ما بلغ ولم يرزقهما الله بالولد، فوضعوني مكان هذا الولد الذي لم يملكاه يوما، وقد وجدت في العمل مع الزهور الكثير من المتعة، فقد صرت أخرج الكثير من طاقاتي السلبية وغضبي على كل ما يحدث حولي في البلاد في تنسيق الزهور والورود، وفي بيعها للشباب الذين يبحثون عن حياة مليئة بالحب والسلام.

قال الصحفي:- والآن هل تنوي أن تعود للصراع السياسي أم أنك ما زلت مصرا على الاستمرار في الانعزال؟

أجابه أمين بكل ثقه:- نعم بكل تأكيد سوف أعود للسياسة، فالسياسة تجري مجرى الدم في عروقي ولكن ليس الآن سوف أعود لها حين أرى شبابنا قد تحرر من قيود الخوف ومن حب المناصب، سوف أعود حين يصبح شبابنا يبحثون عن الحرية والكرامة بصدق، يومها فقط سوف أعود وأكون ممن يشدون على أيديهم ليتابعوا مسيرتهم، سوف أكون لهم الداعم والناصح الأمين، فأنا لن اخذلهم كما خذلونا أبائنا وأجدادنا، لن أسمح لهم بأن يشعروا ما شعرت به أنا وأصحابي حين لم نجد من يدعمنا ويشد على أيدينا، فصدقا لو أن أباءنا وأجدادنا وقفوا مع أبنائهم وقفة رجل واحد لكنا اليوم قد صرنا بأفضل حال، وقد صار حال بلادنا يشهد بها ويشار لها بالبنان، وربما يا صديقي حينها كنا نعطي درسا ومثالا حسنا

لكل البلاد من حولنا، على كل حال ما زلت أوقن بأن الأوان لم يفت وما زال لدينا وقت حتى نتحرر من كل هذا الطغيان.

قال الصحفي:- هل هناك كلمة أخيرة توجهها لكل قراء مجلتنا؟

رد عليه أمين:- أممم نعم سوف أقول لهم اعملوا على تحرير أنفسكم وأبنائكم ومن يعزون عليكم، حرروا عقدة الخوف من قلوبهم و ازرعوا فيهم حب الوطن، إياكم وأن تجعلوا شيئا أغلى من الوطن على قلوبكم، علموهم أن الوطن أغلى حتى من الولد وأغلى من المال والأهل، يا أولادي كونوا على يقين بأن التغيير يبدأ من قلوبكم بالأول وبعدها يتحول لكل الدنيا من حولكم، فقط كونوا مؤمنين بفكرتكم.

شكر الصحفي أمين على وقته وجهده معه، ووعده بأن ينشر لقائه في العدد القادم من مجلتهم، وبأن هذا اللقاء سوف يكون قنبلة الموسم، فالعالم كله ينتظر عودة أمين الوطن كما كان يطلق عليه سابقا، وسوف يكون حديثا لا يعوض، غادر الصحفي على أمل اللقاء من جديد مع أمين الوطن.

وضع أمين فنجان قهوته العاشر على الطاولة وقد أطفئ أخر عود سجائر كان يحمله في جيبة ووقف أمام البحر يخاطبه قائلا: "أعلم يا بحر بأن شباب هذا الجيل يملك قوة وحرية أكثر ممن الأجيال السابقة، وأعلم أن الثورة سوف تكون قريبة جدا وسوف تندلع لتطهير البلاد من الفساد والظلم، ولكن حتى الثورة في بلادي لن تجدي نفعا إن لم نتحرر من دواخلنا وما زال أمامنا الكثير من السنوات لنتغير ويتغير حالنا وحال هذا الوطن، يا وطني نم في سلام فغدا سوف تصبح على صوت الرصاص وعلى منظر الدماء تملأ ترابك"

أعطى أمين ظهره للبحر وقد غادر على أمل أن يتغير حال الوطن إلى الأفضل، ويعم الأمان والسلام يوما ما به"

انهى جهاد المقال المكتوب في قصاصات الورق التي بعثتها بنفسج له وفتح رسالتها التي خطتها بقلمها

"جهاد

لقد انتهت هنا قصة "أمين الوطن" التي نشرتها في إحدى المجلات بعد خروج خالي الحبيب من السجن، "نعم، نعم" هذا جواب التساؤل الذي ألمحه في عينيك منذ بداية الرسالة وأتخيله على وجهك الآن، إن أمين الوطن هو خالي يا جهاد، وأنا هنا سوف أكمل لك قصته التي لم أتمكن من أن أنشرها ذات يوم، فبعد أن أثرت مئات القصص حول خالي ومن أجله في كل مكان فقد بعثت للأمم المتحدة وحقوق الإنسان، وقد شاركت بعض الفضائيات بقصته وحكايته، وقد ذاد قوتي بأني من حاملة الجنسية البريطانية التي كانت تجعل تحركاتي سهلة ميسرة، وقد كنت عضوة نشيطة في منظمة حقوق الإنسان، حتى جاء ذات يوم قرار الحكومة بإطلاق سراحه كبداية لإعلان الهدنة، وحتى يتخلص من كم القضايا التي أثرتها ضده في كل مكان، ففتحت أعين الإعلام والدول الأجنبية على ما يحدث في السجون وعلى ما يحدث في الخفاء بعيدا عن عيون الإعلام والمسؤولين، خرج بعدها أمين وهو يحمل في قلبه الأمل الذي دخل به ولكن قد كان هناك في زاوية من روحه شيء صغير قد بهت بل بالأصح قد مات، حاول هو جاهدا أن يحييه ويعيده وقد كنا من حوله كلنا ندعمه ونحاول أن نعيد له الأمل بالحياة، وقد كان هو أيضا يحاول جاهدا بأن يخرج نفسه من اليأس والإحباط فقرر أن يتزوج ابنة خالته التي كانت تنتظر خروجه من السجن، مع أن الجميع يعلم باستحالة هذا الأمر ولكنها بقلبها المحب وبعشقها لحبيبها الذي خطبها ذات يوم قبل سجنه بقي الأمل في قلبها بخروجه، وبأن تجتمع أجسادهم كما اجتمعت أرواحهم ذات يوم، ولا أعلم إن كان حسن قد أخبركم يوما بقصتهما، فخالي كان يخجل حتى من ذكر أسمها أمام أحد حياء وخجلا لا يملكها الكثير من شبابنا الآن، وقد كانت قصة حبهما كبيرة كانت تشبه الروايات التي يقرأها الجميع والقصص التي يحكونها الصبايا فيما بينهم خفية عن ذويهم، وقد كانت قصتهم حديث كل سكان الحي، ولكن ما لم يكن يخطر لنا أبدا ولا في أسوء أحلامنا بأن أمين لم يتمكن من أن يعود كما كان، قاتل كثيرا ليعود كما كان سابقا ولكنه لم يتمكن من العودة كما كان، فالجزء المفقود فيه قد بقي منطفئا لم ينره شيء أبدا، حتى حين جاء جهاد إلى الدنيا لم يتمكن من أن يزرع البسمة الصادقة على وجه خالي

الحبيب، لقد أسماه هو بنفسه جهاد على اسم شخص غالي على قلبه على حد قوله وحده، اسم جهاد من كان ينير وجه خالي بابتسامة صادقه جميلة جدا، كان يقول لي دائما بأنه أسماه جهاد حتى يحمل هم الوطن ويجاهد لأجله فيحرره من ظلم حكامه، ومن ذل مسؤوليه، وأنه يريده يوما مجاهدا من أجل الشعب، وبعد وفاة زوجته أثناء ولادتها بجهاد بقي خالي وحيدا بلا سند أو معين، مع طفل صغير يبلغ من العمر ساعات قليلة يحتاج لمن يعطيه الحنان ويهتم بأموره كلها، لهذا قررت أن أعود إلى الوطن لأعتني بخالي الحبيب وابنه الصغير، لم أكن أعلم ماذا يخبئ لي الوطن من وجع الفقد والحرمان، من ألم الضياع والجنون كنت أظن بأن الوطن أحن على أولاده من كل العالم، ولكني اكتشفت بأنه أقسى علينا من الغربة، أقسى علينا من فضاءات الضياع الذي كنا نحياه بعيدا عنه، وها أنا قد عدت إلى الوطن بروح محبة للحياة متفائلة بأنه سوف يكون لها يوما أثر كبير في شخصيتي، فأنا لم أر الوطن من السابق، وما أجمل من أن ترى وطنك بعد كل هذا البعد، وطن سمعت عنه من أهلك وتربيت على قصصه التي لا تنتهي من على فم جدك وجدتك، وطن كنت تراه دائما في عيون أمك وصمت والدك، ظننت بأني سوف أجمع ذكريات لا تنتهي أبدا بوطني لأرويها غدا لأولادي فيحبوا الوطن كما أعشقه أنا، ويصير في قلبهم شيء ثمين جدا أثمن حتى من الذهب والماس، سكنت مع خالي في بيته ما يقارب الشهر، كان شهر فيه من التعب الكثير فخالي كان قد اعتزل الحياة متمسكا فقط بابنه الوليد، يخاف عليه حتى من الهواء، بقيت معه لوقت طويل أحاول أن أخرجه من هذا الحزن والانعزال الذي لم يفارقه أبدا، أحاول فقط إخراجه من صمته المطبق الذي دخل فيه بعد فقدانه سبب حياته، بقيت أحاول وأحاول حتى قرر يوما النهوض والعودة للحياة، ولكن ما فاجأني حقا بأنه قد قرر أن يعد ليمارس عمله كناشط سياسي، فعاد ليكتب كمعارض على الإنترنت، وعاد من جديد اسمه يملأ البلاد وصار له طنين وسمعة لا يتمكن أحد من الوصول إليها، حتى جاء ما لم يكن بالحسبان شيء غير حياتي للأبد وجعلني ما أنا عليه اليوم نزيلة مستشفى الأمراض النفسية، وكما يقول المجتمع من حولك مجنونة، في مساء يوم من الأيام يوم غاب فيه القمر رافضا أن يكون شاهدا على تلك الحادثة الأليمة رافضا أن يرى

الوطن بمنظره السيء غير العادل كانت الساعة الواحدة بعد منتصف الليل، تلك الليلة التي رفض فيها جهاد أن ينام وكأنه كان يريد توديع والده الوداع الأخير قبل أن يغادره للأبد، فجأة كسر هدوء الليل طرقات على الباب عالية ومخيفة، أفزعت قلب الصغير فصار يبكي بشكل هستيري بكاء خوف واعتراض على ما سوف يحدث، رأيت خالي ينهض على عجل واضعا على فم جهاد حتى يكتم صوته فلا يسمعه أحد من القادمين وأسرع نحو أحد الجدران فكبس على زر كان في الحائط فتحرك الحائط وظهر خلفه غرفة لم نكن نعلم بوجودها حتى أدخلنا إليها خالي ووضع الصغير في يدي، وهو يقول بهمس" حبيبتي الصغيرة اسمعيني جيدا إياك وأن تخرجي من هنا مهما سمعتي ومهما صار، سوف تبقين هنا حتى تشعري بحلول الفجر وزوال الخطر، مهما حدث ابقي هنا بدون صوت وحاولي أن لا يبكي جهاد كثيرا أعطيه حليبه ففيه منوم سوف يجعله ينام إلى الصباح، لا تخشي شيئا وكوني كما عهدناك ابنة خالها" وطبع قبلة على رأسي بحنان واحتضن جهاد وقبله قبلة الوداع والتفت لي قائلا" استودعتكم الله يا صغيرتي اعتني بجهاد وكوني له الأم والأب عوضا عن الأم والأب الذي فقدهم" وتركنا بعدها مغلقا الجدار مغادرا على صوت تحطم الباب أغلق علينا الغرفة ولكن وبسبب العجلة لم ينتبه خالي لذاك الشق الصغير الذي بقى بين الغرفتين، ذاك الشق الذي جعلني أتمكن من النظر ومشاهدة ما يحدث في الخارج، شاهدت رجالا عددهم كبير جدا، تكالبوا على خالي فصاروا يكيلون له الضرب والتعذيب دون أن يرف لهم جفن، وكأن بينهم عداوة سابقه وغل كبير جعلهم يضربونه دون رحمة، وقد كانوا ينعتونه بأبشع الصفات والسباب، فلم تبقى كلمة سيئة إلا قالوها عنه وعن أهله وذريته، بحثوا في البيت وعاثوا به فسادا ولم يتركوا شيئا بمكانه كانوا كقطيع خراف جائع وقد فتحت أمامهم الباب على طعام وشراب فعاثوا بالمكان فسادا من شدة الجوع والعطش، هكذا كانوا وهكذا كان حال البيت، بقي هذا الحال لوقت تأكدوا فيه من خلو المنزل من أي أحد سواهم، وكان أخر هذه الحفلة التي أقاموها في منزل خالي وعلى مرأى مني بأن رفع أحدهم السلاح وعلى أغلب الظن كان قائدهم، رفع المسدس عليه وصوب باتجاه القلب مباشرة وهو يقول له شامتا "كنت تحب الوطن بقلبك الساذج هذا فانظر إلى أين أوصلك وطنك، سوف يأخذ منك

قلبك وحياتك للأبد" وبعدها صوب المسدس على عقله وقال "كنت تريد تغير الوطن للأفضل بعقلك الصغير فدهسه الوطن دون أي مبالاة فيه" وبعدها على يديه ورجليه حتى ما بقي موضع في جسده إلا وبه رصاصة كانت الدماء تنفر من جسد خال من كل مكان حتى شربت السجادة كل دمائه، وكأن السجادة ترفض رفضا قاطعا أن يذهب دمه هباء، تلك سجادة قد حاكتها زوجته يوما بيديها وكأنها كانت تعلم بأنها سوف تحوي دماء زوجها حتى لا يذهب في الأرض هباء، غادروا البيت بعدها قبل حلول الفجر بدقائق قليلة كانوا كاللصوص الذين دخلوا على المنزل فسرقوا روح خالي وباقي أيامي الجميلة الحلوة، وهكذا غادرنا أمين الوطن، هكذا فارقنا خالي العزيز الغالي فارقنا وهو رافع رأسه للسماء، واقفا بعزة وفخر يدافع عن وطن لم يحترم يوما حبه له، غادر وما عاد بمقدورنا إلا الترحم عليه وطلب المغفرة له ومنه على وطن أضعناه.

إلى هنا وسوف أنهي الرسالة فما عاد بمقدوري سرد باقي الرواية فأنا وكأنني أحياها الأن مرة ثانية وكأني أرى دماء خالي التي نفرت فامتصتها السجادة، وكأني ألمح الرصاص الذي لم يرحم جسده وهو يخترقه ناهيا حياته وأنفاسه، تاركا طفلا صغيرا يتيما من بعده وأم ثكلى تبكيه ليل نهار، مخلفا مجنونة في أروقة مستشفى الأمراض النفسية تحاول جاهدة أن تعود للحياة فقط لأجل أمانته لأجل صغيره الذي أحبه كثيرا وتركه لها، وعد مني يا جهاد بأني سوف أكمل لك الحكاية في رسالتي القادمة،

دعني الآن أختم الرسالة بموضوع مهم جدا أخبر حسن أني أعرف أهله معرفة قوية، فنحن نعتبر عائلة واحدة، كنا نواسي بعضنا البعض بفقد أحبتنا فكما تعلم كانوا هم جيران بيت جدي، وبما أن حسن رفيق درب أمين في الوطن كنا نحن كلنا رفاق بعضنا في الغربة، نعم لقد تغربت عائلته من بعده وقد عانت ما عانت من ويلات الهجرة والسفر حتى أستقر بها الحال في بلاد الضباب معنا، فصرنا عائلة كبيرة نساند بعضنا البعض ونملأ فراغ من أخذ منا قسرا، قل له بأن أمه امرأة نادرة جدا لديها روح معطاءة لا تكل أو تمل روحها التي فقدت يوما ابنها قد سخرتها لتكون أم لكل الشباب من حولها، فما عاد لها سوى الصبر تتشبث به في كل وقت وحين، أخبر حسن بأنها بمثابة أم وجدة لي وأني قد قضيت معها

أجمل أيامي، وقد كان لها الكثير من الأثر في حياتي، أما والده الغالي أو كما يحبني أن أناديه جدي الحبيب فهو يشق طريق الصبر بأعجوبة مبهرة، فقد أنهكت روحه من فراق ولده، وبعدها وطن غالٍ ولكنه ليومنا هذا يجلس في الصباحات في حديقة منزله يعد فنجانين من القهوة واحدا له وواحدا لحسن، يحتسي فنجانه وهو يخاطب حسن، يخاطب الابن الحبيب البار، يطلب منه المشورة والعون في أمور الحياة حتى ينتهي فنجان القهوة، فيترحم على روحه: قائلا اللهم أرحمه ميتا كان أو طيبا، إخواته خالات لي وأخوه كالبلسم لكل جراح العائلة، فقد وضع على عاتقه أن يعيش حياته وحياة حسن أيضا فصار يحاول أن يلهيهم عن التفكير الشديد به، قل له أنهم بخير وأني قد أبلغتهم برسالتي لك، وقد عادت لهم الحياة حين تأكدوا بأنه ما زال حي يرزق، وفي الرسالة القادمة سوف أحرص على أن تصله رسالة منهم فقط نحتاج بعض الوقت لكتابتها والموافقة على إرسالها، قل له بأن يطمئن فكلهم مشتاقون له ويكاد الشوق يفتك بهم، إلا إنهم صابرون على أمل باللقاء في جنات النعيم..

جهاد كن بخير

بنفسج))

وردة مليئة بالأشواك

كانت تقف قرب النافذة تنظر للخارج بانتظار خروج كاترينا وزوجها من المستشفى، فقد تماثلت كاترينا للشفاء وقررت أن تخرج للعالم بروح جديدة قوية لأجل زوج صبر كثيرا على فقد الولد والزوجة أيضا، محاولة بأن تكون قوية بمساندة زوجها المحب لها.

طرقات على الباب جعلتها تخرج من تأملها وتقول للطارق:- تفضل

دخلت كارتينا وزوجها بابتسامة حزينة على وجوههم وكأنهم الآن تلقوا خبر وفاة أولادهم وهم يقولون: بنفسج لقد أتينا لتوديعك ويحق لك بأن تسمعي شكرنا، فأنت قد فعلت لنا الكثير، أنت أعدتنا لبعضنا البعض، وكم نتمنى لك الشفاء العاجل والخروج من هنا، فهناك حياة كبيرة بانتظار قلبك الطيب.

قالت كاترينا مؤيدة زوجها:- أتمنى لك الخرج من هنا بأقرب وقت فحياتنا ليست هنا بل بالخارج، فنحن لم يكتب علينا أن نقضي أيامنا هنا، هيا بنفسج كوني أقوى كما أردتني وطلبتي مني أن أكون، وأخرجي إلى أهلك واجلسي بين من يحبك لتصبحي بخير، فعلاجك بدفء أهلك وأحبتك لا ببرودة حيطان هذا المشفى..

ابتسمت بنفسج وهي تحتضن كارتينا قائلة: لا تقلقي يا صديقتي سوف أخرج قريبا، ها أنا أعدك بهذا يا كاترينا فلا تقلقي، أنا أقوى من أن يضعفني أي شيء ولكني ما زلت بحاجة إلى بعض الوقت فقط، وسوف ترينني أزورك في بيتك لأتذوق حلوياتك التي مدحها زوجك حتى جعلنا نشتهيها.

لوحت كاترينا وزوجها ضاحكين بأيديهم مغادرين كانت كاترينا تمسك يد زوجها بحب وكان زوجها يدعمها برفق وكأنها قطعة زجاج يخشى أن تصاب بأذى، لوحت لهم بنفسج وهي تعود للوقوف أمام الشباك ناظرة لهما وهما يخطوان أول خطواتهم في الحياة من جديد سويا، وكلها أمل أن يأتي يوم تخرج فيه من هنا، طرقات أخرى على الباب جعلها تلتفت

للباب ولصوت الممرضة تخبرها بوصول رسالة، أخذتها بنفسج شاكرة وهي تجلس على الأريكة، غادرت الممرضة، وهي تنظر لبنفسج هناك شيء غريب بها منذ أسبوعين تقريبا، والكل يشعر بأنها ليست معهم في هذا الزمان، وكأنها تعيش في زمان آخر ومكان بعيد جدا عن هنا، وحده الطبيب كان يبتسم ويقول لهم ترقبوا عودة بنفسج للحياة، ولكنها لن تكون عودة عادية سوف تكون عودة لها ضجيج يسمعه كل سكان الكرة الأرضية، فقط ترقبوا ويضحك مبتعدا وكأنه يخفي شيئا عن الجميع.

((صغيرتي الحبيبة بنفسج

اليوم أكتب رسالتي لك وأنا أشعر بأن قلبي يخرج من مكانه من كثرة الفرح الذي رأيته في عيون حسن فقد بكى حتى جفت دموعه فرحا وقد أبكى كل من بالمهجع، كانت معرفته أي شيء عن أهله حلم لم يكن يتمنى أن يحلمه حتى، فقد كان يخشى إن علم السجان بأنه حلم بهذا الحلم أن يعاقبه عقابا قاسيا، فحتى الحلم للسجين السياسي أمر محرم عليه، صدقي يا بنفسج المهجع كله بكى فرحا له وكأننا نحن من علمنا شيئا عن عوائلنا، وكأننا قد عدنا للحياة بعد موت دام عقود طوال.

آآه يا بنفسج لقد أهديتنا الأمل بحسن وقتلتي الأماني بخبر استشهاد أمين رحمه الله، فكلنا هنا كنا نتمنى لو أنه يعيش الآن حياة أفضل من حياتنا حرا طليقا، يقوم بما كنا نحلم كلنا القيام به لقد كنا كلنا نعتقد بأن أمين يعيش عنا وعنه حياة رائعة، ولم يخطر ببالنا بأنه قتل غدرا، بنفسج أمين لم يكن صديقي فحسب بل كان أخا وحبيبا، كنت أرى الدنيا من خلال عينيه، وكان يرى الدنيا بابتسامتي، كنا كالتوأمين لم نفترق أبدا حتى في السجن كنا سويا، فنحن قد درسنا وكبرنا سويا، واخترنا طريق النضال والسجن سويا، وقد كنا وحسن وعادل زوايا مربع لم يتمكن أحدا من كسره يوما، أتعلمين حتى نحن لم نكن نعلم عن بعضنا البعض فقط أمين كان صلة الوصل بين زوايا المربع لهذا كان صعبا جدا على أحد أن يسقطنا حتى دخل بيننا ضعاف النفوس والخونة فأسقطونا، كان الكل يعلم بأني لم أكن سعيدا ومرحا إلا حين أكون في جوار أمين، فأنا حين كنت أجالسه كنت أعلم بأن الدنيا صغيرة ولا تستحق منا إلا الفرح، كان هو منبع التفاؤل والأمل في حياتنا، وكم يؤلمني بأن أعلم بأنه قد أصيب

بالإحباط واليأس لهذه الدرجة الكبيرة جدا فهذا يعني بأنه قد رأى من الأمور ما هو مهين جدا فلم يحتمله، يا بنفسج لقد كان أمين الروح، وكنت معه أعرف مدى قوتي و هشاشتي، مدى ضعفي وسيطرتي على كل شيء، عندما خرج من السجن فرحت له وكأنني أنا الذي أفرج عني لا هو ولكن كان هناك جزء مني يخشى أن يكون قد نقل إلى سجن أخر وحسب وليس لينال حريته، أتعلمين ما يعني أن يفرقوننا بالسجون، كان ليكون هذا دمار لأرواحنا، أعلم الآن لماذا لم يأتي لزيارتي أمين ولا مرة؟؟ ولماذا لم يقل لي شيئا منذ غادرنا؟ وأنا الذي انتظرت منه شيئا يثبت لي بأنه قد أصبح حرا، وأنه الآن يتنفس بدلا مني هواء وطننا الحبيب لقد كان أمين يخشى علي منهم، أنا أعرفه أكثر من نفسه فهو يعلم ثمن زيارته جيدا، فثمنها سوف يكون جلسات من التعذيب والضرب والإهانات والحرمان، وبالأخص بعد ما قلتيه لي عن طريقة موته، أعلم الآن أنهم أطلقوا سراحه ليبقوه تحت أعينهم سجينا عندهم، حرا بالاسم سجينا بالفعل، فأمين كان شوكة في حلق النظام، سعيد أنا لأني عرفت ما حصل له، وسعادتي لا توصف بمعرفتي بأنه قد خلف من بعده ولد سوف يتابع يوما مشوار والده، وأنه سوف يكون أقوى وذو شأن أعلى إن نشأ على يديكِ أنتِ، وكنت له السند والعون فأنت ابنة أخي أمين، وأمين قد رأى فيكِ شيئا مميزا حتى أمن جهاد عندك، رحمه الله كانت روحه غالية علينا، الآن فهمت ما شعرت به منذ سنوات فأنا أحسست بأن شيئا قد انطفأ داخلي، واليوم علمت ما هو؛ إنها روح أمين ما غادر قلبي، بنفسج كوني قوية لتتمكني من أن تعتني بجهاد وبنفسك كما كان يريد هو دائما أن تكوني كوني حلم خالك وحلمنا جميعا في الخارج.

بنفسج، اليوم سوف أروي لك قصة جديدة من قصص السجن سوف أروي لك قصة عدنان، ذاك الطبيب الحالم الذي كان يرى الدنيا بعيون بريئة وطفولية، كان يرى الدنيا بطريقة لا تتناسب مع عمره فهو كان ما يزال في سنته الأولى للطب عندما أحب أن يغير العالم كما تمنى كل شباب بلادنا، أرادها حرة تملك من الكرامة الكثير، ذات نهار وأثناء المظاهرات التي خرجت ضد النظام تمنى لو أن يكون له دور وبصمة بإيصال الرسائل إلى الخارج فيثير الرأي العام، لهذا اشترى كاميرات من دولة مجاورة ليتمكن من توثيق ما يحدث وينشره

حول العالم، كان من عائله ميسورة الحال فلم يكن المال أمر يقلقه أو يحد من عمله، لهذا أشترى العديد من الكاميرات وبدأ عمله بكل حب وإخلاص، أراد أن يصل صوت الشعب لكل المعمورة، أن يكون عاليا أعلى من أي شيء، أراد أن يسمع الكل صوت الموت الذي في بلاده، وأن يشهد العالم كله على صراخ الأمهات، وثق العديد من الأحداث بالصور وقد عالج أيضا العديد من الحالات بخبرته البسيطة وعزيمته العالية، كان يشتري العديد من الأدوية ويقوم بتوزيعها على المشافي والصيدليات وعلى المستشفيات الميدانية، وقد اعتبر بأن كل حاله لديه هي حالتان، حالة مرضية يجب علاجها وقضية يجب أن تصل لعدد من الناس، وهكذا عمل بكل حب وإخلاص وقد أعطى لأجل هذا الغالي والثمين، فهذا كله من أجل قضيته وشعبه، حتى أجتمع يوما برفاق له كان يعتقد بأنهم أخوته بالنضال، وأنهم مثله قد أحبوا القضية ودافعوا عنها دفاع المستميت، ولكنه كان يجهل بأن عيون النظام بكل مكان، وعلى الإنسان ألا يثق بنفسه في هذه الأوضاع، حكى لأصدقائه كل ما يفعله وكل ما يعانيه في سبيل إيصال الحقيقة، أخبرهم بكل شيء وكله أمل بأن يكونوا له العون والدعم، ويكونون له ظهره الذي يستند عليه، ولكن مالم يحسب حسابه بأن يكون أحدهم طاعنا لذاك الظهر، إذ وبعد أيام من اجتماعهم دعاهم رفيقهم إلى الغداء بحجة أن لديه ما سوف يساعدهم به، وأن لديه معلومات مهمة جدا، وحين تم الاجتماع داهمتهم قوى الأمن وقادتهم إلى السجن، مكث بالسجن بضعة شهور، كان يصبر من معه، كان يدعمهم ويذكرهم بالوطن وبالقضية، كانت طاقته لا تنفذ أبدا وقوته لا حدود لها، مع أنه كان أصغر المساجين ولكن هذا لم يمنعه من أن يتبناهم كلهم وقد أعطاهم من الدعم ما يحتاجونه وأكثر، لقد كان ثابتا في التحقيق قويا وقت التعذيب، فلم يوشِ بأحد ولم ييأس أو يستسلم، بعد عدة شهور أطلقوا سراحه بعفو أتى من الرئيس، لم يسكته العفو، ولا الليالي والأيام التي قضاها بالسجن جعلته يصمت أو يخاف بل زاده كل هذا إصرارا وعزيمة، فعاد بكل قوة ليمارس مهنته ونشاطاته حتى اعتقلوه مجددا وهو يحاول الخروج إلى بلد مجاور ليحضر شحنة من الأدوية الجديدة، وقد بقي في السجن منذ ذلك الوقت إلى الآن، قضى كل هذه السنوات الطوال هنا ولكنه لم يعد كما كان، وكأن السجن أكل من براءته وطفولته التي كان يرى فيها العالم،

ولكن أجمل ما فيه أنه أبدا لم ييأس وما زال يحلم بأن يتغير النظام يوما حتى ولو كان مقيدا هنا، عدنان يا بنفسج هو ذاك الفتى المرح الذي يجلس اليوم صامتا متألما مشتاقا لأم انجبته وأبا رباه حتى كبر، فهو وحيدهم ويعلم علم اليقين كم يتألمون بسبب فقده، وما زال لديه أمل بأن تتغير الأوضاع ويخرج يوما عائدا إليهم يقبل أيديهم طالبا منهم أن يسامحوا الوطن الذي أخذه منهم وحرمهم قربه كل هذا الوقت مطالبا إياهم على أن يبقى الوطن أغلى ما في قلوبهم حتى لو حرمهم وحيدهم.

بنفسج يا صغيرة في العمر أنتِ وكبيرة بالعقل بما يكفي لتعيشي كل هذا الألم وتبقي ثابتة قوية مقاتلة، غاليتي بنفسج لا تكتبي شيئا قد يرهق عقلك وروحك لا تحاولي أن تعودي بالزمن للوراء حتى تكتبين عنه فتعودي لتعيشي الأحداث من جديد وكأنها تحدث الآن، أكتبي يا بنفسج ما تجدين فيه سعادتك وأملك وحياتك التي تريدينها وتنتظرك خارج حدود المشفى.

عزيزتي الصغيرة ابنة أخي، أمين لم يمت ولن يموت أبدا إن كان خلف ورائه روحا كروحك محاربة مثلك ما زالت تأمل بالكثير وتحب الوطن مع كل ما رأته بالوطن من وجع وآلام، إن تمكن أمين من زرع القوة والثبات فيك وإن كان تركك خلفه تتابعين مسيرته بتربية ابنه والنضال لأجل الوطن فهو لم يمت، بل سوف يبقى دائما شوكة عالقة في حلق النظام واتباعه الذين تخلوا عن ضمائرهم، كوني يا بنفسج قوية كما تمناك أمين يوما، وكما يريدك جهاد ويحتاجك الآن، وكوني بقدر المسؤولية التي كلفت بها يا صغيرتي، وتأكدي بأنه بحجم الألم الذي يسكنك سوف تنتصرين على كل تلك الأشباح التي تتبعك لتكوني كما أراد لك أن تكوني بنفسج القوية الباحثة عن ذاتها في كل مكان وزمان دون يأس.

يا صغيرتي الحبيبة كوني بخير.

جهاد)

في جو يسوده الحزن والأمل أجتمع كل من في المهجع على سفرة الغداء المكونة من أزر أبيض غير مطهو جيدا، ودجاج أبيض خال من الملح، ومع هذا يأكلونها وهم مستمتعين، فهذه الوجبة في السجن تعد وليمة لهم وهم سعداء بها ولا يريدون أكثر من ذلك، ومع هذا فقد كان طائر الموت يحلق حولهم وكأنه ينتظر لحظة غفلة لينقض على أحدهم فيخطف روحه من جسده، مخلفا الحسرة في القلوب والأرواح، حسرة الشوق لحضن أم وعطف أب، حسرة الحرمان من ابن يحتاج لضمة من والده، هكذا كان يخطف الموت أرواحهم لتبقى أجسادهم تئن من حرمان لا حدود له، فمنذ وصلهم خبر استشهاد أمين الوطن وطائر الموت لا يتوقف عن التحليق حول رؤوسهم، فهم كانوا يشعرون به قريبا منهم أقرب من أنفاسهم لهم، ومع هذا كانوا يحاولون أن يتمسكوا بأمل كاذب بأن يكون أمين بخير، ويحيى حياة جميلة وهانئة بدلا عنهم جميعا، كلهم يعلمون بأن موت أمين يعني موت عمود من أعمدة النضال ضد النظام والصراع للحرية وهذا ما كانت تسعى الحكومة له دائما ، فقد كان من أهم الركائز التي يرتكزون عليها ليثبتوا ويقاوموا محتفظين بالأمل في قلوبهم المتعبة، اليوم بموته صاروا يعلمون أنهم قد فقدوا جزءا مهما من أرواحهم، فهم سوف يستمرون بالنضال لأجل روحه التي تشاهدهم من السماء وتناجيهم بأن يستمروا بالصبر وكأنه بينهم، وهل غادرهم هو حقا ؟ حتى ولو غادرهم جسده فكلماته ما زالت بينهم تخاطبهم، وتشد على أيديهم، هكذا كانوا ينظرون إلى خبر موته مع كل ذلك الألم والفراغ الذي تسبب به الخبر، إلا إنهم أقوى من أن يضعفوا لأجله هو فقط، فهو كان دائما يحثهم على الصبر والقوة وبألا يسمحوا لشيء بكسر عزيمتهم وتدمير قوتهم التي يملكونها، قطع جو الصمت المميت صوت جهاد وهو يغني بأغنية كان يغنيها أمين بين الحين والأخر:

طـالَ المنامُ علـى الهـوانِ * * * فأين زمجرة الأسود

واستنسَرَت عُصَبُ البُغاثِ * * * ونحنُ فـي ذلِّ العبيـــد

قيـدُ العبيدِ من الخنــوعِ * * * وليسَ من زَرَدِ الحـديـد

فـمـتى نثــورُ على القيودِ * * * متى نثورُ على القيود؟

سكت الجميع مستمعين لصوته وهو يدندن بهذه الأغنية الثورية التي كانوا يغنونها في قديم الزمان وهم يناضلون الطغاة، ولم يقطع ترانيمه واندماج الكل من حوله معه، سوى صوت الحارس وهو ينادي: جهاد أحمد! رسالة.

نهض جهاد وهو يمسح دموع عيونه التي تساقطت ماضيا لأخذ الرسالة والغوص في عالم من شوق لمعرفة تتمة قصة أمين وابنه جهاد، وأمل بأن يكون هناك خبر جيد عن رسالة حسن من أهله لتمسح عن صدره ذاك الغبار العالق منذ سنين، وتبعث في عينيه نظرة الحياة التي غادرته وما عرفت طريق العودة، فتح الرسالة ليجدها قد امتلأت بدموع قد تساقطت، وكأن من كتبها قد ذرف دموعا كثيرة وكأنها فيضان من دموع:

((عزيزي جهاد

صديق خالي الحبيب من أخبرني عنك الكثير والكثير، وقد سرد عنك وعن حسن ونضال القصص والروايات، إن جمعتُها يوما سوف تصبح مجلدات، كانت سيرتكم لا تتوقف عن لسانه، ولا ينتهي من قصة عنكم حتى يبدأ بقصة أخرى أكثر جمالا، كم أتمنى أن تكونوا بخير، فقد كان حلم خالي قبل وفاته أن يجتمع بكم، أن يحتضنكم ويشبع منكم، فهو قد اشتاقكم وافتقدكم حتى صرت أغار منكم عليه.

أعلم بأن السجن يحمل الكثير من التعب أضعاف مضاعفه مما تحمله الحرية، أعلم بأن السجين يحتاج إلى سماع قصص الحرية حتى يتمكن من الصمود، أما الحر فينا فيحتاج ليسمع قصص السجن ليقوى على متاعب الحياة، كان خالي دائما يخبرني عن السجن وكيف يغير الإنسان ويقلب كل موازينه وثوابته، لهذا حين أُغلقت بوجهي كل سبل الحياة وصرت أعلم بأن لا شيء سوف يعيدني كما كنت في السابق حرة طليقة كعصفورة صغيرة ترفرف بجناحيها، قد جاء قراري بأن أقوم بمراسلة أحد المساجين في سجون بلادي، وهل هناك أكثر من السجناء في بلادنا ليحكوا مجلدات عن ظلم سجانيهم؟ ظلم أعلم يقينا بأنه لم يعشه أحد سوى أبناء البلاد العربية، ظلم بلا حدود ولا نهاية، أتعلم لماذا وقع خياري على سجون مدينة الياسمين؟ أعتقد بأن هذا السؤال يراودك منذ بداية الحكاية، يا صديق الورق كل ما في الأمر بأني كنت أحتاج أن أشعر بقرب خالي مني، أحتاج أن أشعر بوجوده

حولي وأنا بهذه المحنة القاسية، فكما تعلم فإن ما أوصلني لهذه الحالة الصعبة هو موت خالي أمامي، ولهذا ظننت بأنني حين أحادث أحد المساجين ربما يكون الدواء لدائي، وأعود لأولد من جديد كما العنقاء أولد من رماد المِحَن، فقد كنت أحتاج لأن أشتم رائحته بين سطور رسائلك، وما جعلني أقدم على هذه الحركة بكل ثقة وقوة وبدون تردد هي وصية خالي الحبيب التي وجدتها بين أوراقه يوما، كان قد أوصاني بأن أحاول الوصول إليكم وإخباركم بكل ما حدث له، والاطمئنان عليكم من بعده، كان قد كتب بأن هذا الحلم والأمنية ضرب من جنون ولكنها أمنية وحلم لديه، لهذا جاء قراري بأن أقوم بمراسلة أحد السجناء فلا أحد أكثر جنونا مني ليحقق حلم خالي الحبيب، ولكن لم يخيل لي ولا بأجمل أحلامي وأمالي بأن يكون صديق الورق هو صديق روحه وأخ سنوات عمره توأما له، قد حدثني عنه كثيرا وأسمى ابنه على اسمه ليبق هذا الاسم خالدا في حياته للأبد، كم أنا ممتنة وسعيدة بهذا الحظ الجميل مبتهجة بهذه الصدفة التي قلبت موازين حياتي، فقد صرت أشعر وكأن خالي قد عاد من جديد، وكأنه معي الآن يشاركني تفاصيل حياتي ويشد على أزري داعما ومساندا، وها أنا صرت أراه قربي وأشعر بروحه تحلق حولي، سعيدة أنا بأنك أنت من استلمت رسالتي، سعيدة لدرجة أني أستطيع فعل أي شيء يطلب مني، قوية لأعود من جديد لمواجهة الدنيا بقوة وثبات، فخالي قد عاد إلى حياتي من جديد.

جهاد؛ سوف أكمل لك قصة أمين من حيث توقفنا المرة الماضية، فبعد أن اقترب الفجر على البزوغ غادر العساكر جميعهم كأنهم لم يتواجدوا أصلا، وعم بعدها الهدوء في زوايا المنزل كأنه لم يشهد منذ سويعات حادثة مفجعة، بقيت في الغرفة السرية مختبئة حتى بدأت أصوات المارة والبائعين تنتشر في الحي، خرجت مسرعة مهرولة إلى بيت صديقتي القريب من مسكن خالي رحمة الله عليه، كنت متماسكة بقوة عجيبة وكأنني لست أنا المعنية بكل ما يحدث، وكأنني أشاهد فيلما سينمائيا على شاشة التلفاز، لا حقيقة سوف تقلب موازين حياتي رأسا على عقب، أودعت جهاد عند صديقتي دون أن أخبرها بما حدث، قلت لها بأني مشغولة وسوف أعود في وقت قريب لأخذه، وغادرت حتى اتصل بالشرطة لأخبرهم بما حدث، ولكن حين وصلت إلي البيت وجدت رجال الشرطة تملئ أركانه وأهل الحارة مجتمعين

حول البيت يبكون بدون صوت أو دموع رحيل هذا البطل المناضل، جاهلين كلهم لما حدث متيقنين بأنها عملية اغتيال لم يجرؤ أحد على قولها، وقد قيد رجال الشرطة الجريمة ضد مجهول، مدعين بأن لصا حاول سرقة المنزل وحين حاول خالي مقاومته قتله، لم يأخذ أحد شهادتي ولا شهادة الجيران، بالأصل كان التقرير معدا سابقا، فلا حاجة أبدا لأن يسمعوا أقوالا لن تنفعهم بشيء، بل ربما سوف تضرهم وتكون ضد مصلحتهم، كنت أقف بين الجموع عاجزة عن فعل شيء أو قول ما حدث في ظلام الليلة الماضية، فأنا لم أكن أجرؤ على قول بأني كنت متواجدة في البيت وقت الحادث، كنت مرتعبة بأن يلحقوا بي الضرر أو أن يعلموا بوجود ابنه فيأخذوه مني كما أخذوا أباه، وهكذا انتهت القصة بالنسبة للوطن الذي قاتل من أجله أمين طوال حياته، انتهت حكاية أمين الوطن بلص حاول سرقة بيته فذهب هو ضحية دفاعه عن بيته وأملاكه، وأغلق الموضوع دون أن يتشجع أحد على قول شيء مخالف لما قالته الحكومة والشرطة، سكت الجميع دون أن يقولوا شيئا أو حتى دون أن يخرج بجنازته أحد، كان الكل مرتعبا من أن يصيبه طيش ما أصاب أمين، لهذا رضوا بما قالته الحكومة بل وأيدوه وصاروا يتداولونه بينهم، أذاعوا الخبر بالصحف والمجلات والإذاعة والتلفاز في الصباح الباكر "لص هاجم بيت أمين الوطن فقتله وهو يحاول سرقته، وهكذا رحل أمين الوطن رحل الخائن الذي باع وطنه للعملاء وقبض ثمن هذا الوطن منذ سنوات طوال"

أغلق الموضوع وماتت الحقيقة على أيديهم كما مات أمين حينها، بعد أيام مما حدث بدأت أستوعب هول الأمر فأصابني انهيار شديد وأصبت بحالة لا توصف من الكآبة والحزن والصمت المخيف، كنت أمشي في البيت بجسد خال من الروح، لا أتمكن من تمرير الطعام في فمي ولا بأن أخرج الكلمات منه، كنت أحتضن جهاد الصغير وأسبح في عالم بعيد، صرت أرفض الخروج ومواجهة الناس وهم يحملون كذبة كهذه نشروها ما بينهم وصدقوها، حتى لو كان محال تصديقها، كنت أرفض أن أرى بعيونهم أسفا على موت خالي بهذه الطريقة وهو الذي رحل شهيدا لأجل الوطن ولأجلهم، رحل وهو يحلم بأن يعيد لهم جزءا من كرامتهم المهدورة والضائعة، جزءا من حقوقهم المسلوبة، لم أبك يومها وحتى

يومنا هذا رحيل خالي، وكأن بكائي يا جهاد سوف يثبت رحيله، وسوف يجعل من الأمر حقيقة لا هروب منها، كنت أقيم في بيت صديقتي التي أودعت عندها جهاد، كنت أحتضنه طوال الوقت وأنا سارحة في خيالي حتى خافوا علي وعليه، فقد كان صغيرا على هذا الحزن الكبير وهذا اليأس الشديد، حين وصل الخبر لأهلي وعلموا بحالتي حجزوا تذكرة ليعيدوني إليهم على أقرب طائرة مغادرة بلاد الياسمين إلى مدينة الضباب، كانوا يريدونني قربهم ليكونوا في جواري بهذه المحنة الصعبة والحالة القاسية التي أمر بها، ولأنه لم يكن بمقدورهم أن يأتوا أخذوني إليهم، وكان لهم ما أرادوا فأنا قد سافرت بعد استشهاد خالي بثلاثة أسابيع مخلفة ورائي جهاد بأمانة صديقتي حتى تكتمل أوراقه وأتمكن من أخذه إلى حضني مجددا، وما زلنا نحاول حتى هذه اللحظة بأن نأخذ جهاد إلينا ولكن أوراقه لم تكتمل بعد، عند وصولي إلى مدينة الضباب ساءت حالتي النفسية بل كانت تتدهور بشكل كبير وسريع حتى قرروا أهلي أن يتصلوا بالطبيب ليجد لي الحل، وها أنا هنا اليوم في أروقة مستشفى الأمراض النفسية، أمضي فيها أيامي ولياليّ بلا شخص أستند عليه، وبلا روح أخذ منها العون، يحاول الطبيب وكل الطاقم الذي معه بأن يعالجونني من كل ما أعاني منه، ولكني ما زلت أنا صامدة لا أتمكن من الحديث عن الموضوع، ولا من البكاء حتى، وكأنني أخشى أن أواجه العالم بدون خالي وجهاد، بدون وجودهم الداعم لي والمانح السعادة لروحي، وقد صرت متيقنة الآن بأن وقت خروجي بات قريبا جدا، فأنا سوف أخرج لهذا العالم وكلي يقين بأنك وحسن وعادل تدعمونني من بعد خالي، فأنتم كلكم قد كنتم أخوة له، وأخوة خالي بكل تأكيد أخوال لي، سوف أخرج للعالم أكثر قوة وصلابة، ففي ظهري ثلاثة أساطير لا أسطورة واحدة، سوف تجعلون لحياتي طعما أخر ومعنى أجمل، فأنتم لن تتخلوا عني ما دام فيكم نبض ينبض ونفس يخرج.

جهاد؛ لا تظن بأنني استسلمت، أنا لم أستسلم ولكن ومنذ رحيل خالي كنت أحاول أن أكون قوية، وأن أكون بحجم المسؤولية التي تركها على عاتقي ورحل، بحجم الوصية التي أوصاني بها بأن أعيد للسجناء حريتهم التي سلبت منهم، وأن أبقى أناضل لأجل الوطن الحبيب مهما كانت ظروف الحياة، فهناك من يحتاجني بكل تأكيد، إنه الوطن وهل هناك

شيء أغلى من الوطن؟ إلا أن الإنسان في بعض الأحيان يحتاج لاستراحة محارب ليتمكن من أن يجمع بها القوة التي يحتاجها ويحاول أن يبثها بنفسه ليصمد حين تضربه رياح الحياة من جديد فلا يقع عند أول هبوب للريح، وكلما عزمت على الخروج أجد قوتي تتلاشى وأنا أتذكر صورته أمامي وهو مضرج بدمائه، وفي أذني تضج كلمات الصحافة وأقوالهم عنه، كيف تمكنوا من الحديث السيء عنه وهو من ضحى لأجلهم بالكثير؟ كيف استطاعت ألسنتهم قول كلمات تهين من عاش ومات وهو يحاول أن يجعلهم يعيشون حياة كريمة؟ هل حقا يضيع الحق بهذه السهولة؟ هل تتشوه الحقيقة بهذه البساطة؟ ودون أن يتأثر أحد؟ أو يحاول معرفة ما حدث بصدق؟ ليتك يا جهاد تدرك هذا الألم فحين تدركه ربما تجد حلا له فأنا لم أعد أقوى على تمثيل القوة التي تريدونها مني، والتي ينتظرها الكل، أنا أضعف من نسيان جسد خالي والرصاص يمزقه تمزيقا بكل مكان في جسده، فكل رصاصة قد دخلت جسده قد استقرت بروحي أنا أيضا، فهم قد قتلوا روحي كما قتلوا خالي، ولكن إياك أن تخاف فأنا كطائر العنقاء عندما يتحول لرماد لا يموت، بل من رمادها يخرج طائر أخر أكثر جمالا وقوة محلقا عاليا في فضاء السماء، وأنا هكذا من رماد روحي التي قتلوها يوما سوف أخرج من جديد، سوف أكون أكثر قوة وصلابة، أكثر ثباتا على النضال من أجل الوطن ومن أجل حرية مساجين منسيين في متاهات السجن، ولكن كل ما كنت أحتاجه الوقت، بعض الوقت وسوف أعود من جديد، ثق بذلك يا جهاد فأنا سوف أعود للحياة بروح جديدة وقلب حديدي لا ينكسر أو ينصهر أبدا.

دعني اليوم أختم رسالتي بأن أقول لك ولحسن وعادل بأن خالي أمين قد مات وهو يردد أسمائكم، فأنا قد عرفت كل واحد منكم من قصصه التي لا تنتهي، وكأنه كلما أشتاق لكم أحضركم لجواره في خياله وعبر حكاويكم التي عشتموها معا، لهذا كونوا بخير لأجل أحلامكم وآمال خالي الذي مات وكله أمل بكم

بنفسج))

وانتصر الشوق

تجلس على سريرها تتأمل العالم بصمت كبير، تشعر اليوم بأن لديها طاقة من الأمل والسعادة لا حدود لها، تعلم السبب لهذا تصمت وتتأمل الدنيا بتمعن غريب، لقد اشتاقت لجهاد الصغير ابن خالها الغالي، وتشتاق لمجاهد أخوها الصغير تشتاق أن تشم رائحتهما وترى ملامحهما التي يذكرونها بالراحل الذي غاب يوما عنها، وأخذ معه جزءا من قلبها وروحها، نهضت بعزم سوف تذهب إلى الطبيب تخبره بأنها تريد محادثة الأول ورؤية الثاني، سوف تفعل كل ما يريده الطبيب حتى تتمكن من أن تطفئ لهيب الشوق في قلبها، فالشوق يكاد يخنق أنفاسها، سوف تكتفي بأن تسمع صوت ابن خالها جهاد حتى يأتي اليوم الذي سوف تتمكن من إحضاره إلى هنا، اليوم الذي سوف تتمكن من أن تشم رائحته وتنعم بحضنه كما ينعم هو بحضنها، فمن قال بأن الصغار هم من يحتاجون لأحضان الكبار، أحيانا يحتاج الكبير لحضن الصغير ليطفئ لهيب التعب والإرهاق في قلبه، كم تحلم وتتمنى بيوم قدوم جهاد ليدخل حياتها فيشاركها التفاصيل التي عجز خالها عن مشاركتها لها، فيكون لها الأنيس في هذه الحياة والقوة كما كان أبوه دائما، وصلت إلى غرفة الطبيب وطرقت الباب منتظرة الإذن في الدخول، وما إن سمعت صوته حتى

دخلت مستعجلة.

ابتسم الطبيب حين رآها أمامه ونهض من مكانه قائلا: أهلا بالجميلة الفاتنة أهلا بمريضتي المحاربة الصغيرة، أهلا بزميلة المهنة، التي تشاركني بمهنتي وكأنها لم تكتف بأن تكون مريضتي، فقررت بأن تكون زميلتي أيضا.

ردت له ابتسامته بحياء وقالت: محاربتك الصغيرة جاءتك لتطلب منك أن تسمح لها بالذهاب إلى أهلها، فهي تشتاق لهم وتحتاج رؤية مجاهد، تريد أن تكون في أمان بيتها لهذه الليلة فحسب؛ لتتمكن من أن تتصل بجهاد الذي يسكن الياسمين بعيدا عنها.

ابتسم الطبيب بسعادة لا يعلم كيف يخفيها وهو يقول: لك ما تريدين يا بنفسج، وسوف أسمح لك بأخذ الرسالة التي وصلتك على شرط واحد.

قالت بسرعة: موافقة

ضحك الطبيب وهو يربت على كتفها قائلا: لكنك لم تسمعي الشرط بعد فلا تتعجلي.

أجابته بثقة: هذا لا يهم، موافقة مهما كان هذا الشرط تعجيزي.

ابتسم الطبيب وعيونه تلمع، فها هي روح بنفسج المحاربة قد عادت من جديد: شرطي بأن تقرأي الرسالة في منزلك لا هنا.

ابتسمت بسعادة وهي تهم بالخروج من الغرفة: حسنا لك هذا، سوف أذهب الآن لأحضر نفسي، وأنت قم بواجبك تجاهي وأطلب لي سيارة أجرة، فأنا أريد مفاجئة العائلة.

وغادرت مستعجلة إلى غرفتها ترتب أمورها قبل أن تغادر المستشفى.

طرقات على باب غرفتها أخرجتها من اندماجها في ترتيب نفسها للخروج بصخبها الذي اعتادوا عليه حين تكون بمزاج جيد، قالت: ادخل ففي الداخل لا يوجد أي خطر.

ضحكت الممرضة وهي تقول: أنا أدخل إلى غرفتك بنفسج لا إلى مقر عصابة، فلن أخاف منك بكل تأكيد، لقد بعث لك الطبيب بهذه الرسالة قائلا بألا تنسي شرطه.

أخذتها بنفسج وهي تقول: أخبريني عند وصول سيارة الأجرة، ولن أخل بشرطي أبدا.

خرجت من المستشفى باتجاه سيارة الأجرة وفي عيونها بريق غريب، كان الطبيب والممرضات يتابعونها من النافذة، تساءلت إحدى الممرضات قائلة: غريب أمر بنفسج فمنذ أسبوعين كانت في حالة غريبة وكأنها قد فارقت الحياة، كان جسدها معنا وروحها في مكان بعيد، لم تكن تتكلم أو تفعل شيئا كثيرا، واليوم تراها وكأنها قد انبعثت من جديد صاخبة مرحة، باختصار بهجة للناظرين.

ابتسم الطبيب قائلا: هذه بنفسج

نظروا له الممرضات قائلات: هناك شيء تخفيه عنا أليس كذلك؟

أبعد الطبيب عيونه عنهن وغادر دون أن يقول شيئا، ولكن ابتسامته قالت الكثير والكثير، فهو يعلم بأن شفاء بنفسج كان قد جاء من حديثها عن كل ما حدث معها في رسائلها مع

ذاك السجين جهاد، يعلم بأن بسمتها وسعادتها سببهما أنها تمكنت من أن تفرغ ما في جعبتها من وجع وأحداث، لقد انتصرت بنفسج عليه هذه المرة، فلقد وجدت لنفسها الدواء وعالجت ما فيها من أوجاع وآلام.

حين وصلت بنفسج إلى بيتها أسرعت تحتضن والدتها ووالدها لتنعم بحضنهما الآمن وحنانهم الذي لا ينتهي، وقد وجدت كل أسرتها مجتمعة وكأنهم قد شعروا بقدومها اليوم فجلسوا ينتظرونها، جلست مع العائلة جلسة كانت تحتاجها وتشتاق لها، جلسة طويلة صاخبة بكل المحبة والإبداع، لم تنتهِ الجلسة بسهولة؛ فقد كان شوقهم وشوقها لا ينتهي أبدا، بعدها قررت الذهاب إلى غرفتها لتستريح فيها، فهي قد اشتاقت للنوم بدفئها وجمالها، وتقرأ رسالة جهاد التي وصلت اليوم.

((عزيزتي بنفسج

يا فتاة أنتِ أقوى مما تظنين لهذا لا تحتاجين لأحد حتى يمدك بالقوة، فأنتِ منبع القوة فلا تنسي بأنك تحملين بعضا من دماء أمين في عروقك، غاليتي من تحملت كل تلك المصائب دون أن تصاب بالجنون فهنيئا لها بهذه القوة والثبات، عزيزتي أنت لا تحتاجين لمن يأخذ بيدك؛ فقوتك نابعة من داخلك، من قلبك المحب المعطاء، ذاك القلب الذي أعطى خاله الدعم الذي يتطلبه وكان لابنه حضن الأم دون أن يكل أو يمل، وما زال يعطي كل من حوله حتى مع كل ما يمر به من آلام، حتى مع ظنك بأنك متعبة ومنهكة، هل من الممكن أن تستسلمي الآن يا بنفسج، كوني قوية لأجل نفسك أولا، ولأجل من تحبين ثانيا، اليوم يا غاليتي سوف أروي لك قصة عجيبة بعض الشيء، قصة شهاب ذاك البطل الذي لم يكن له مثيل، كان قائد مجموعة كبيرة أصابت الجميع بالجنون، فقد كان قوة نازعها جميع أفراد الجيش والمخابرات، وقد كانت فرقه أقوى من أن تهزم، فقد كان إيمانها وثباتها لا شبيه له، فهم أخلصوا حتى نالوا ما يريدون، شهاب كان القائد الذي حير الجميع، فلم يبق أحد إلا وحاول الإمساك به، حاولوا بكل الطرق حتى ملَّوا المحاولات، فقد كان حذرا جدا لم يكن يخاف أحدا أو يهاب شيئا، ومن هنا كسب قوته وصلابته، حتى كتيبته لم يتمكن أيا كان من الانضمام إليها، وفي يوم من الأيام وهو في معركة حاسمة وشديدة استطاعوا الإمساك به عن طريق

الهاتف المحمول الذي كان يستخدمه ليتحدث من خلاله مع أحد منفذي العملية وهكذا ألقوا القبض عليه، وقد عُذِّب كثيرا، وما زالت آثار التعذيب على جسده كنياشين لإخلاصه، ولكنهم لم يفتُروا من تعذيبه وقد ابتكروا الكثير من الأساليب حتى تعب وقرر الاعتراف بكل شيء، فاعترف على كل رفاقه فجمعهم النظام كلهم وسجنوهم في سجن واحد، ولكن العجيب يا بنفسج بأنه تحول من بطل مقاتل في سبيل الحرية والوطن إلى عميل داخل السجون، فصاروا يزرعونه بين مجموعة من الشباب الذين يريدون أخذ إفاداتهم ولكنهم لم ينطقوا بشيء تحت التعذيب فيسرد لهم هو قصصه في الماضي فيؤمن له الجميع ويعطوه كل ما يريد من معلومات، وهكذا يوقع بهم في أيدي الظَلَمة، كلنا صرنا ندرك هذا فلقد فاحت رائحته الكريهة بيننا إلا أنه ما زال مصرا على أنه بطلا لا خائنا عميلا، ولقد كان شهاب سببا بأن أمسكوا بالعديد من المناضلين خارج السجون، وكان سببا في تسجيل اعترافاتهم، وهكذا سقط البطل المقاتل الذي ضحى يوما بالكثير لأجل الوطن، سقط في حفرة التجسس والعمالة فما عاد بطلا وما عاد بعيون أتباعه سوى خائن بائع لضميره، فابتعد عنه الجميع وصار بيننا منبوذا لا يقترب منه أحد ولا يكلمه أي شخص بيننا.

أيتها المحاربة الصغيرة أنتِ أقوى من كل الظروف لهذا لا تستسلمي بسرعة، فخالك باق حي بروحه التي بثها بك وبابنه الذي هو امتداد له، لا تظني غاليتي بأن الحقيقة قد دفنت، فهناك الكثير ممن يعلمون الحقيقة ويدركون بأن أمين الوطن قد اغتالته الحكومة، ولكنهم لا يتمكنون من قول شيء خوفا على أنفسهم وأحبتهم، فليس الكل بطلا كما أمين، فأنا لا أظن بأن كذبة كهذه سوف تنطلي على الكثير من أبناء شعبنا، فهناك من العقول من تفهم ما وراء الخطوط، وتقرأ ما بين السطور من الأكاذيب، وبكل تأكيد هناك من يترحم على بطل كأمين لهذا فذكراه لن تخمد وسوف تبقى خالدة ما دامت الياسمين مزهرة في القلوب والعقول.

صغيرتي صاحبة القلب الكبير كوني أقوى من كل تلك الظروف التي مررتي بها، فكلنا نعتمد عليك حتى يصل صوتنا إلى العالم الخارجي، وحتى يعلم شعبنا وكل شعوب العالم ما يحدث في كهوف السجن وبين أروقة القصور والمؤسسات الحكومية من خيانات وقتل بلا

سبب وبلا صوت، ومساجين قد ضاع عمرهم وعمر أهاليهم وهم لا يعلمون إن كانوا على قيد الحياة أم قد تواروا تحت التراب.

كوني بطلة يا صغيرتي كما أنت دائما ولا تستسلمي مهما صار

جهاد))

ينظر إلى المساجين الذين وقع عليهم قرعة التعذيب، فحتى التعذيب في السجن هنا بالقرعة يقوم به السجان في اختيار من سوف يحضر حفلة التعذيب اليوم، فهو كلما شعر بالملل أو الإرهاق من الحياة يفرغ طاقته على أجسادهم وغضبه من أي شيء فيهم، والتعذيب بكل تأكيد أنواع وأشكال؛ منه ما يكون سهل وهو الضرب بالكرباج يتخلله بعض السباب فقط، وهذا عندما يقرر السجان بأن يغير بعضا من الهدوء الذي يعيشه، وبعدها يأتي التعذيب بالإغراق وهو أن يضعوا الماء ويدخلوا رؤوسهم فيها حتى إذا ما شعرت الضحية بأنها على وشك أن تغادر الحياة أخرجوا رأسه من الماء، ليعيدوا الكرة مرة بعد مرة حتى يصيبهم الملل، وهناك التعذيب بالكهرباء وهو بأن يقوموا باختيار أكثر الأماكن ضعفا ليصعق منه ضحيته، فهذه الأماكن سوف تصيبه بالوجع الشديد وأحيانا بالشلل المؤقت، أما بساط الريح فهو أكثر أنواع التعذيب وجعا؛ فالسجين حين يعلم بأن دوره هذه المرة على بساط الريح يتأكد بأنه سوف يتلقى من التعذيب الكثير، وأنه سوف يستمر لوقت طويل إلى أن يفقد وعيه ويكون على يقين بأن الأسبوعين أو الثلاثة القادمين سوف يكونون من أصعب أيام حياته، فهو لن يتمكن من إمساك أي شيء بيده ولا أن يسير بشكل سليم إن استطاع بالأصل الوقوف على قدميه، كان جهاد ومن معه يتناوبون على العناية بمن وقعت القرعة عليهم بوضع كمامات الماء البارد وتمريضهم وإطعامهم وغيرها من الأمور، وبعدها يقرأون على أسماعهم آيات من القرآن حتى يخففوا عنهم بعضا من وجع ما أصابهم، فلا يوجد موضع في أجسادهم إلا وبه ضربة أو أثار حرق وكلهم يدور في رؤوسهم سؤال: ترى من سوف يكون الضحية القادمة؟ أخرج جهاد من عمله صوت الضابط وهو ينادي باسمه: جهاد أحمد! هناك رسالة لك.

أخذها جهاد ليجلس في زاويته بعيدا عن الجميع ويقرأها:

((الغالي جهاد

لدي خبر جميل لقد قمت هذا الأسبوع بالخروج من عزلتي الإرادية ومن سجني الاختياري إلى حرية الدنيا وفسحتها، فقد كنت أحتاج لأرى العالم وأرى مجاهد أخي الحبيب الصغير، أتلمس من براءة ضحكته ومن تعثر كلماته سعادة الحياة وأملها، كنت أحتاج أن أرى جميع

أفراد أسرتي ولكن ليس على أرضي بل على أرضهم، لا أريد أن أراهم وأنا بين برودة المشفى ولكني كنت أريد أن أراهم وأنا بين دفء وأمان البيت، فأنا اشتقت أن أرى غرفتي، اشتقت لكتبي ودفاتري ولكل ما يتعلق بي، خرجت وكلي أمل بأني قريبا سوف أحصل على جهاد ابن خالي الغالي ليكون عوضا لي عن كل شيء في هذه الدنيا.

جهاد سوف أكتب لك اليوم عن رحلتي مع العلاج النفسي الطويل جدا، فبعد أن تم اكتشاف حالتي وبعد عدة جلسات مع الأطباء قاموا بتجربة جلسات العلاج الطويلة مع أدوية مضادة للاكتئاب كان اسم أول دواء مضاد للاكتئاب أخذته **Aripiprazole** ومع أن هذا الدواء لم ينفع بشيء إلا أنهم استمروا بإعطائه لي مع جلسات نفسية طويلة تقوم على الحديث الطويل معي، ومع رفضي القطعي للحديث بأي شيء يخص الماضي بل حتى عن أي شيء قد مررت به منذ طفولتي حتى هذه اللحظة، كنت أتكلم عن أشياء عادية وسطحية جدا، وبقيت على الدواء فترة طويلة كان الطبيب يزيد الجرعات كل فترة حتى شعر بأن لا فائدة منه، وبعد تشخيص حالتي بالانفصام بدأ الطبيب بإعطائي دواء آخر وقد بدأت بأخذ دواء **Quetiapine**، وقد جلست عليه لفترة جيدة جدا حتى تعب جسدي منه وملَّته روحي ورفضته نفسي ولم أستفد منه كثيرا، فقرر الطبيب حينها التوقف عن تجربة الأدوية معي والانتقال لأسلوب آخر وهو أسلوب البوح واللعب بالذكريات، فخصص لي مرشدة نفسية تستمع لكل شيء يخرج مني وتحاول أن تمتص كل ما يؤلمني، كانت تحاول أن تعيدني للماضي لتلك الطفلة الصغيرة التي كنتها، وتطلب مني أن أتحدث معها أقول لها ما كان يجب علي قوله حينها، ما كان علي أن أخبرها به حتى لا تدخل في هذه الحالة، كان هذا العلاج ينفع لساعة أو ساعتين، بعدها أعود للوم الذات والغوص في الماضي البعيد، نفع الأمر في البداية وقد استبشر الطبيب خيرا، ولكن سرعان ما انتكست حالتي من جديد وقد عدت لنقطة الصفر، وكأن كل محاولاتهم بسحب ما يؤلم قلبي وروحي باءت بالفشل، فعاد الطبيب لفكرة الدواء وقرر أن يبدأ معي بدواء آخر، ولكني سافرة سوريا عند خالي ومكثت هناك بعض الوقت الذي طال قليلا، وبعد ما حدث معه كانت حالتي حينها قد ساءت أكثر من السابق وصار من اللازم إدخالي إلى مستشفى الأمراض النفسية، أصابني إحباط كبير حينها

كنت رافضة لما يحدث ولكن بالنهاية قد أعجبني الهدوء والانعزال الذي أحياه داخل المشفى لهذا وافقتهم على ما يحدث.

وبدأ الطبيب بعلاج جديد ولكن كان للدواء أثر كبير على هرمونات الجسم التي ارتفعت نسبتها، وتعب جسمي وساءت حالته بسبب هذا، فقرر الطبيب أن يوقفه، وبعدها بدأ معي علاج بالإبر لم أحفظ اسمه بعد، إلا أنه يؤلم جسدي وروحي كلما غرسوا الإبرة في جسدي، ولكنها تساعدني على النوم بدون كوابيس عن تلك الليلة السيئة، وتجعل جسدي يسترخي في النهار، حتى أتى طبيب جديد للمستشفى كان عربي الأصل عندما اطلع علي حالتي وقرأ ملفي كاملا اتضح له بأن التشخيص خاطئ، وأني فقط أعاني من اضطرابات ما بعد الصدمة، وقد كنت أعاني منها منذ صغري لبعض الصدمات التي مررت بها ورفضت إخبار أحد عنها، وجاء موضوع خالي النقطة التي أفاضت الكأس، وقد قرر إيقاف كل الأدوية والعلاجات التي كنت أتعاطاها، وبدأ معي علاجا جديدا وهو أكثر ما نفعني بحق، كان العلاج بحركة العين وهذا علاج حديث قد طورته عالمة أمريكية لعلاج الاضطرابات ما بعد الصدمة، يجمع هذا العلاج بين عناصر من المعالجات المعرفية والسلوكية النفسية. بحيث يضيف أسلوبا من حركات العين شبيهة بحركات العين التلقائية التي تحدث في مرحلة من مراحل النوم تعرف بنوم حركة العين السريعة، وهكذا تحسنت كثيرا، وما عاد هناك داعي للعلاج، وكل ما بي الآن هو رفضي للخروج ومجابهة العالم الخارجي، وقد أخبرني الطبيب بأن علاج هذا الأمر يكون بالحديث عما حصل ليلة اغتيال خالي، فأنا لم أتقبل موته ولم أتحدث عنه أبدا، وكان أول مرة تحدثت فيها عن الموضوع حين بعثت لك بالرسالة أخبرك بكل ما حدث تلك الليلة وهنا بدأ العد العكسي لخروجي من هنا.

دعني أحادثك عن خروجي من المستشفى لقد خرجت عندما كنت أشعر بأني أحتاج أن أرى العالم من حولي أن أدخل إلى بيتي حيث عالمي القديم، أن أضع قدمي على مكان كنت أقف عليه يوما وأنا سعيدة خالية البال، لقد كانت العائلة بانتظاري مجتمعين كلهم وكأنهم قد علموا بقدومي، أخي وزوجته وأولاده، أختي وزوجها، أمي وأبي كانت في عيونهم نظرة فخر، نظرة عارف بأن قوتي قد عادت من جديد، وأنها لن تسمح لي بالهروب من جديد،

كانت فرحتهم جميلة إذ انهم وجدوا بقدومي اكتمال للعائلة طال انتظاره، اقتربت منهم واحتضنتهم وسعدت بالحديث معهم، سعدت بوجودهم حولي، كما سعدوا بوجودي، بقيت معهم محتضنة أخي مجاهد في حضني، أفرغ شوقي إليه وإلى خالي وابنه باحتضانه، وتحدثت إلى جهاد الصغير أيضا ابن خالي الغالي ورأيت صورة كانت ليلة من العمر لا تنسى، هذه الليلة سوف تمدني بالطاقة إلى الأبد سوف تشحن عزمي حتى أصل إلى بر الأمان وأعود أقوى من ذي قبل، وها أنا أعود إلى المستشفى بروح أقوى وعزيمة لا تنضب بأن موعد الخروج قد حان، وأنه قد عاد موعد النضال والصراع من أجل الوطن والشعب المخذول جدا.

بنفسج))

ولدت من جديد

تقف تحت إحدى الشجرات ناظرة إلى السماء بعيون تبرق بالحياة والأمل مخاطبة إياها، تخبرها كم هي سعيدة اليوم ومبتهجة، وكم تشعر بالراحة والهدوء النفسي، هي سعيدة لأن حقيقة اجتماعها بجهاد قد باتت قريبة جدا، وقد بدأت الأوراق بالاكتمال وسوف تغادر إلى الياسمين من جديد، هي تحتاجه بقربها، تحتاج إلى دعمه الطفولي وإلى نظرة الضياع التي ما زال يرمق بها الدنيا، تحتاج إلى ضحكاته لتشرق حياتها، تحتاجه أكثر من احتياجه لها، فقد صار جهاد كل عالمها وليت هناك حدودا لعالمها الكبير، اليوم أخبرها الطبيب أن صديقاتها سوف يأتون لزيارتها، ولكم هي سعيدة بهذا القدوم، وبأنهم ومن بين أشغالهن ومتاعب حياتهن قد استطاعوا أن يسرقوا من الزمن سويعات لزيارتها، فتسمع أخبارهن وتشاركهم جنونهم المعتاد وحديثهم الذي لا ينقطع مهما كانت الظروف والأسباب، عادت من تأملها على صوت الممرضة وهي تخبرها بأن هناك رسالة قد وصلتها أخذتها لتفتحها بكل الشوق الذي يملأ روحها..

(بنفسج الحبيبة

سعيد أنا بآخر الأخبار التي تلقيتها عنك وبما وصلت إليه من نضال لأجل نفسك أولا، سعيد بخروجك أخيرا من ذاك السجن الذي وضعت نفسك به حتى لو كان هذا الخروج خروجا مؤقتا، إلا أن بداية الغيث قطرة، وغدا سوف تكونين أقوى لتخرجي وتواجهي العالم بأكمله، فخور بك أنا اليوم يا صغيرتي، وكم أحلم أن أراك يوما خارج حدود سجنك تركضين خلف فراشات تشبه قلبك، وتغردين مع العصافير بأعذب الألحان، وتحلقين خلف حلمك حتى تشرق أيامك كلها، أتمنى لو تعودي يوما إلى بلاد الياسمين فتزهر روحك كما زهورها البيضاء.

اليوم يا بنفسج لن أروي لك قصة جديدة فهذا يكفي فلن يحتمل قلبك يا صغيرة مزيدا من الأوجاع والآلام، وهو قد امتلأ من كثرة قصصي، ولا أريده أن يتألم أكثر، دعي ما يحدث هنا يبقى هنا وقد سمعت ما يكفيك ليعينك على ما تريدين القيام به.

اليوم يا صغيرة سوف أروي لك قصة من ماضي بعيد من ماضيَّ أنا حين كنت شابا يافعا أحاول إثبات بأني قد نضجت، كنت أنا وخالك أمين الوطن ندرس للامتحان القادم متعبين ومنهكين من كم المعلومات التي نريد حفظها ودراستها، والوقت قد صار يجري بسرعة البرق، وبكل حب دخلت أمي؛ كانت تريد الاطمئنان علينا ودعمنا نفسيا ومعنويا لنكمل المشوار، كنت متعنتا حينها، أريد أن أثبت رجولتي وأني قد صرت كبيرا بما يكفي لأستغني عنها وعن حضنها الحاني، فأنا لا أريدها أن تعاملني معاملة الصغار صرخت بوجهها قائلا: لست طفلا يا أمي حتى تطمئني علي وتتأكدي بأني لم أؤذي نفسي، من فضلك يا أمي أخرجي ولا تعودي إلى هنا ثانية فنحن إن احتجنا لشيء سوف نخبرك به.

خرجت أمي من الغرفة وفي عيونها مئات الدموع التي لم ألحظها لأنها حبستها حتى لا تؤذي روحي ولشدة تكبري وغروري، إلا أن خالك الحبيب لاحظها جيدا فقلب كقلبه لابد أن يلتقط دمعات أمي الحبيسة، فقلبه جُبل على العطاء، قلبه لا يعرف للأنا مكانا، قلبه الذي عرف كيف يكون الحب والوفاء لابد أن يلحظ كل شيء من حوله، يومها لم يفعل الكثير بل قام بجمع كتبه قائلا: أنا سوف أغادر فلا فائدة من دراستك بعد الآن وكلها سوف تذهب هباء، فالله لا يوفق أحدا كان سببا بدموع أمه، ومع هذا لم يحاول تجفيفها. غادر بعدها بصمت وقد كانت نظرته تحمل من العتب الكثير واللوم الأكثر بكثير، حل الصمت على الغرفة بعد مغادرة أمين، بقيت وحيدا والذنب يملأ قلبي ويتضخم، فصار يأكلني من الداخل حينها شعرت بحجم ما فعلت، فخرجت باحثا عن أمي وقد وجدتها تمسح دموع القهر بصمت، وحين رأتني ابتسمت قائلة: هل تحتاج لشيء يا قرة العين؟

نظرت إليها والذنب يتمكن مني أكثر وأكثر وهبطت عند قدميها أقبل يديها معتذرا منها على ما بدر مني، قالت حينها بهدوء: قم يا بني فقلب الأم لا يعرف للغضب مكان من صغير، قم

يا قطعة الفؤاد أنت، لا تخشى على قلبي فهو اعتاد على الأحزان فقط اهتم أنت بمستقبلك لتسعد روحي.

توسلت اليها أن تسامحني وطلبت منها الرضا والمغفرة على تكبري وغروري، يومها لم يتوقف لسانها عن الدعاء لي ولأمين طالبة من الله أن يرضى عنا ويوفقنا في كل خطوات حياتنا.

كان هذا الموقف من بين الكثير من المواقف التي حدثت بيني وبين أمين فهو كان يعرف كيف يشعرك بذنبك دون أن يقول الكثير، بل أحيانا دون أن ينطق بحرف، وقد تذكرته مع مواقف أخرى حين حدثتني عن خالك وعما حل به.

أتعلمين يا بنفسج أن معظم شبابنا يجهل معنى الأم وعظمتها، يجهل تلك القوة التي تنبع من دعائها ويتناسى معنى أن تقهرها لتبكي عمرا بأكمله، يتجاهل بأن برضاها يفتح الله لنا أبواب الدنيا، وبحزنها وغضبها يغلق أمامنا حتى أصغر باب، إن شبابنا لا يستطيع أن يستوعب معنى أن تكون أمك على قيد الحياة، معنى أن تتنعم بحنانها وأن تسمع صوتها فيمتلئ قلبك بالرضا والفرح، فليتنا نعلم كيف ننهل من عطائها الذي لا ينفذ، ومن حنانها اللا محدود، فإن حب الأم لابنها يكبر معه يوما بعد يوم فتراها تهتم بك وكأنك طفلها الرضيع مهما بلغ عمرك، وبأن علينا أن نسعد قلبها حين نتقبل اهتمامها ونقابله باهتمام مماثل، يا بنفسج نحن من أضعنا أنفسنا حين أضعنا راحة قلوب والدينا، حين مضينا في هذه الحياة بكل أنانية وتعنت لا نبالي بما يحث معهم وبما يحل بقلوبهم حين نقسو عليهم.

صغيرتي الشجاعة أنثري بعضا من حروفك الجميلة على صفحات رسالتك فأنا أحتاج لأقرأ لك فأنعم بما تكتبين

جهاد))

هناك في زاوية بعيدة من ساحة التنفس يقف جهاد متأملا الدنيا من حوله، ناظرا إلى السماء وهو يخاطب روح صديقه الغالي وأخ دنياه أمين، ذاك الذي أعطاه كل ما تمنى وفضله على نفسه في كثير من المواقف والأحداث، كان دائما يشعر بأنه أخاه الأكبر الذي يفديه بروحه إن تطلب الأمر، مع أن فارق العمر بينهما كان لا يتجاوز الثلاثة شهور، هو على يقين بأن أمين ينظر إليه الآن من فوق ومتأكد بأنه يطالبه بأن يكون أقوى، خاطب روحه قائلا: آآه يا أمين كم أفتقدك وكم أفتقد حضورك ووجودك في حياتي، ضحكاتك وابتساماتك كانت ما يمدني بالقوة والثبات، ظني بأنك في مكان ما في هذه الأرض سعيدا مبتهجا وما كنت أعرف بأنك قد غادرتنا دون وداع، آه يا نبض الفؤاد أنت اليوم هناك وقد تركتنا وذهبت مستريحا من أوجاع الدنيا ومن خذلان الوطن لك، وقد تركتنا خلفك نصارع في سبيل تحقيق الحرية لوطن مكبل بالكثير من القيود والأوجاع.

من بعيد سمع صوت الحارس يناديه، تنهد بهدوء وهو يعود إلى الواقع مستلما الرسالة ليفتحها

((جهاد الحبيب

الأم.. وما أدرانا ما هو قلب الأم؟ قلبها من ذهب وروحها من ألماس تخشى علينا حتى من نفسها، فتجدها مضحية بصحتها وسعادتها لأجلنا، لقد ذكرتني بخاطرة قد كتبتها يوما عن الأم وقد قلت فيها حينها

"يا الله ما أجمل قلب الأم
قلبا لا مثيل له
ذاك القلب الحنون
الذي يعطي دون حدود
دون أن يحتاج لمقابل
فهو يريد فقط راحتنا
يفرحه سؤالنا عنها

ويسعدها همسنا بكلمات الحب الناعمة

كم تكون سعيدة حين تراك حوله فقط

تسمع صوتك

وترى ضحكاتك

يا الله ما أطيب قلبها

تجدها تخاف علينا وعلى صحتنا

دون أن تبالي بنفسها

فتهمل صحتها لنكون بخير

فهي تقتات من رنة ضحكاتنا واحاديثنا

فالأم هي الشخص الوحيد الذي لا يطلب مقابلا لحبها

فقط يكفيها بعض كلمات تسعدها

قلبك يا أمي جنة

وأنا أريد الإقامة فيه

أنعم بجماله

وأرتشف من حنانه

فيغمرني فيه

فأنا أرى الكون أجمل

وأنا بين أحضانك الآمنة

فقط يا أمي

كوني بخير

فهذا يكفينا"

جهاد أتعلم! لقد أتت صديقاتي لزيارتي منذ بضعة أيام وقد كنت سعيدة بزيارتهم جدا، فلقد تغيرت حياتهن كثيرا، فلم يخيل لي يوما بأني سوف أرى صديقاتي قد كبرن إلى هذه الدرجة، وقد تزوجن ومنهن من أصبحت أما أيضا، كم كنت سعيدة بهن ومن أجلهن، هل تعلم يا

جهاد جميعهن قد تغيرن حتى من الداخل، لم أكن أتخيل بأن الحب الذي يعيشوا قصصه قد يغير بريق عيونهن وابتسامتهن، فهي قد ازدادت جمالا وصارت أكثر إشراقا، لم أكن أعلم بأن الحب ينير الوجه لهذه الدرجة فحين رأيتهم سعيدات وهن يتحدثن عن أزواجهن وماذا يفعلوا وماذا يقولوا وكيف يفكروا؟ تذكرت الماضي ذاك الماضي الذي ليس بالبعيد، فأنا حين أحببت رجلا خيل لي بأنه مختلف عن كل رجال الأرض، وأنه سوف يكون لي سندا وداعما أعتمد عليه بعد الله، كنت أظن بأنه سوف يحتوي قلبي فيزيده قوة وثباتا، كانت حينها أمي تقول لي: يا ابنتي هناك شيء قد تغير بك، فابنتي الصغيرة ازدادت جمالا، ابنتي صارت ابتسامتها أكثر إشراقا ونعومة.

كنت أضحك من قلبي قائلة لها: أنا هي أنا يا أمي، أنت فقط تتوهمين و تبالغين كثيرا.

اليوم فقط أدركت ما كانت تعني أمي، فهي لم تكن تتوهم أو تبالغ؛ فالحب يعطيك جمالا وبريقا للعيون واشراقا في الوجه، وكل هذا كان بسبب حبي المجنون لرجل قد خذلني كما لم يخذلني أحد يوما، لرجل قد أهديته قلبي متمنية أن يحافظ عليه ويصونه، معتقدة بأنه سوف يقف في جواري حين أحتاجه، وأن يكون اليد التي تمتد تسندني حين أقع فينتشلني من الضياع والتيه، حينها لم أتخيل بأن تنتهي قصتنا الرقيقة بهذه البساطة، وأني حين أحتاج أن أستند عليه يبتعد حتى أسقط على الأرض وحيدة فيبخل علي بأن يمد يده لينقذني، كم يؤسفني ما وصلنا إليه، فنحن ذات وقت كنا قد رسمنا مستقبلنا سويا وقررنا أين سوف نسكن، وبأنه سوف يصبح لدينا أولادا كثر يلعبون حولنا، كنت أحلم بهم يشبهونه بكل تفاصيلهم، بسمار وجهه الجميل وبمعالم وجهه الحبيب، فيأخذون منه ابتسامته البراقة ورنة ضحكته المنعشة، لم أتخيل يوما أن حلمي سوف يتكسر على أرضية الواقع المؤلمة، وأنه سوف يضيع وينتهي كما ضاع وانتهى الكثير من حولي، كنت أعتقد بأننا مختلفون عن الجميع، وأن قصة حبنا لا تشبه أي قصة في الوجود، وليتني ما آمنت به لهذه الدرجة، جهاد لا تعتقد بأني ندمت على حبه، بالعكس فحبه أجمل تجربة قد مررت بها في حياتي، مع أني لم أتوقع أن تصبح جزءا من الماضي، ولكنها سوف تبقى بقلبي أحفظها عن العيون والقلوب من حولي، هذا الماضي الجميل لن أنساه أبدا ولن أخرجه من روحي ما حييت،

ولكنه سوف يبقى ماضيا بعيدا، فبالله عليك كيف يمكنني أن أتعامل مع هذا الماضي دون أن أجرح قلبي، ودون أن أؤذي روحي المحتاجة له، فأنا ما زلت إلى الآن أتخيله في جواري يخبرني بالكثير، أصحو من نومي أبحث عن هاتفي منتظرة منه صباح الياسمين ليساميتي الحلوة، ما زلت حين أكون في مشكلة أنتظر قدومه لأشاركه بها، وحين أسمع خبرا يسعدني أنتظره ليفرح معي، ما زال يعيش في داخلي ولا أتمكن أبدا من أن أخرجه مني حتى وأنا أعلم بأنه قد قرر الخروج من حياتي نهائيا، وأنه خذلني حين أصابني ما أصابني وتركني وحيدة أصارع الدنيا ومآسيها، ولكني ما زلت أحتفظ له بصورة براقة جميلة في روحي لن أتخلى عنها أبدا، فهو - مهما كان - قد سكن يوما فؤادي ولمس روحي، وحضن القلب ليزرع فيه الفل والياسمين، فهو حبي الأول والوحيد، هو وحده من تمكن من أن يقتحم القلعة وأن يكسر أبوابها، هو من تمكن من أن يزرع في روحي الياسمين ويسقيه بكلمات الهوى.

أخبرني يا جهاد كيف هو حالك وكيف تمضي أيامك في فسحة السجن؟ أتعلم! أشتاق لرؤيتك يوما وأنت حر طليق، ولكن ليست كحرية خالي التي انتهت بموته، أريد أن تكون حرا أنت ونضال وحسن ببلد ينعم بالسلام والأمان، ينعم بالحريات واحترام الآخر، بلد يقدر كل ما قمتم به من تضحيات، فأنا منذ زمن قد بدأت في إثارة موضوع السجناء السياسيين في بلادي، وبدأت بسرد كثير من القصص عما يحدث من خفايا في عتمة السجون، وبين كهوف القلوب المظلمة، وقد أثرتها في العديد من الصحف والمجلات وبرامج التلفاز، وفي عدة مكاتب لحقوق الإنسان، وقد قمت برفع العديد من القضايا في محكمة الأمن وأثرتها في الصليب والهلال الأحمر، فقد راسلتهم من أجل هذا الموضوع مع الكثير من الأدلة والإثباتات، وقد كنت مصرة على أن أجد حلا لما يحدث بالخفاء في وطني الحبيب، كنت أريد أن يسمع صوتكم كل العالم، ولكن ومنذ فترة لم أعد أتابع الموضوع سوى عن طريق الانترنت والهاتف، وهذا جعله يأخذ وقتا أطول مما يجب، فأنا حتى بوجودي حبيسة هذا المستشفى البارد لم يمنعني من فعل الكثير أيضا، قد أجريت الكثير والكثير وأنا محبوسة هنا، فالإنسان إن أراد شيئا يستطيع فعله مهما كان عليه من قيود، وقد قررت منذ هذه

اللحظة بأن أفتح الموضوع بطريقة أكبر وأشد، وسوف يكون هدفي كله متركزا على المساجين السياسيين، وكلي أمل بأن تخلو سجوننا من سجناء السياسة المظلومين، الذين عاشوا لسنوات ولم يعلم بهم أحد فتعود الحياة لأرواحكم وأرواحنا، وتعود البسمة على وجوه أمهاتنا من جديد، ويزهر بلدي الحبيب مرة أخرى بكم، بكم أنتم الذين لم يكن جرمهم إلا أنهم قد أحبوا أوطانهم أكثر من أي شيء آخر، وضحوا لأجله بكل غال وثمين، فهذا هو الوطن ومن أجله يبيع الإنسان كل ما لديه من أملاك وأحلام وطموحات.

بنفسج))

تجلس مع الطبيب بحضور أهلها، وهذا استثناء قد طالبت به هي، ففي مدينة الضباب يمنعون على الطبيب إطلاع الأهل على أي معلومات تخص المريض مهما كانت صلة القرابة، فلا يوجد استثناءات، لا لأب أو لأم أو حتى لزوج، ولأن الحياة الأسرية مفككة هنا لأبعد حد فهنا كل إنسان قد تعدى عمره الستة عشر عاما مسؤول عن نفسه، متابع لشؤون حياته، وحيد لا يهتم به أحد ولا يسأل عن أمره أحد، ولكنها اليوم قد طلبت وجود أهلها معها ليرتاح بالهم وتطمئن أرواحهم القلقة عليها، فهي تعلم بأنهم سوف يموتون قلقا عليها وعلى صحتها النفسية، كان الطبيب سعيدا جدا بتطور حالتها في الفترة الأخيرة، فقد أصبح لحياتها أهداف كثيرة، فها هي تتعود لتكتب من جديد وهدفها هذه المرة رواية لم تخبر أحدا بعد باسمها، فصارت تمسك بحاسوبها طوال الليل والنهار تعمل عليه بكل جد وجهد من أجل قضايا السجناء، وتثير الكثير من المواضيع عن طريق الإنترنت مديرة العديد من الحوارات والنقاشات، تكتب العديد من الأبحاث الصحفية والمقالات التي لها علاقة بالأمر دون أن تشعر باليأس أو الإحباط مع كل الضغوطات التي تعرضت لها وكل الإهانات التي تلقتها، فها هي قد ملأت وقتها ولم يعد لديها وقت لتفكر أو حتى لتحزن على ما أصابها بالماضي من أحداث وأمور عظيمة، اجتمعت مع المحامي المسؤول عن قضية جهاد ابن خالها، وها هي تتابع القضية يوما بعد يوم مطالبة المحامي بالإسراع في الإجراءات القانونية حتي لو كلفها الأمر الكثير من المال، فلم يعد هناك شيء يهمها سوى أن تعود لتشعر بالحياة من جديد، لقد صار الطبيب سعيدا بهذه التغيرات الرائعة، ومتفائلا بكونها قد تجاوزت الماضي، وحالتها بتحسن مستمر وكأنها حقا كانت في سبات عميق وقد استيقظت للتو من نومها؛ لتتمسك بالحياة بكل عزيمة وإصرار، لهذا فهو سوف يسمح لها بالخروج من المستشفى نهائيا وسيتابع حالتها من البيت، مع يقينه التام بأنها لن تحتاج للكثير من الجلسات بعد الآن، لقد صارت قوية بذاتها وصاحبة إصرار وعزيمة، وهو فخور بمريضته ومحظوظ لكونه قد عالج مريضة مثلها، ففي حياة الطبيب هناك مريض يؤثر به ويعطيه دافعا ليكمل عمله ومعنى لهذا العمل.

كانت بنفسج تنظر في عيون أمها وأبيها وهي فخورة بنظرة الراحة التي تطل من عينيهما، والفخر الذي يشعران به لأجلها، لأنهما قد شاهدا كل مراحل علاجها حتى لو كان عن بعد، ويعلمان بأن ما وصلت إليه الآن كان بعزيمتها التي لم تنقطع يوما، وبإصرارها الذي تحسد عليه، كانا سعيدين بخبر تحسنها، متأكدين بأنها أقوى من أن يغلبها المرض، خرجت بنفسج لتحضر حاجياتها لتغادر مع أهلها وهي تردد أبيات شعر قد حفظتها يوما من خالها الحبيب:

حزر فزر شغل مخك

شوف مين فين بياكل مين

احنا مين وهما مين

احنا قرنفل على ياسمين

احنا الحرب حطبها ونارها

واحنا الجيش اللي يحررها

واحنا الشهدا ف كل مدراها

منتصرين او منكسرين

حزر فزر شغل مخك

شوف مين فينا بيقتل مين

هما مين واحنا مين

عند باب المستشفى ناداها الطبيب ليعطيها رسالتها الأخيرة التي ستستلمها هنا أخذتها لتقرأها بهدوء:

((بنفسج

يا ذات القلب الأبيض ما أجمل ما تشعرين به وتعبرين عنه بكلماتك الرقيقة وبمشاعرك التي تدخل القلب دون قيود، بنفسج الغالية أعطني وعدا بأنك لن تتوقفي عن الكتابة مهما حدث ومهما كانت الظروف التي تمرين بها، فالكتابة يا صديقتي هي متنفس الروح والقلب، ومتى ما توقفت عنها ماتت روحك ببطء شديد، وستأخذ معها كل جميل في حياتك وشخصيتك.

بنفسج الغالية.. الحب! وما أدراك ما الحب؟ الحب يا صغيرة يغير كل شيء بالإنسان حتى نظرته للدنيا، يصبح كل شيء حوله مزهرا كما لو أنه يراه بعين محبوبه، الحب يا صغيرتي يعطي للحياة طعما حلوا ومرا وحامضا مختلطين مع بعضهما البعض ليخرج لنا طعما مميزا لا مثيل له، بنفسج أنا أعلم عما تتحدثين، فيوما ما قد مررت بما قلتي، فأنا عندما أحببت كان كل من حولي يقولون لي بأن وجهي قد ازداد نورا وإشراقا، وقد كانت الراحة بادية على معالمي وتصرفاتي، وعلى كل تحركاتي وكل ما يحيط بي فالحب يا غاليتي يجعل العالم من حولك مشرقا وروحك كالفراشة خفيفة وجميلة محلقة في كل الاتجاهات وإلى كل الأماكن الجميلة والمبهجة، حتى السواد في حياة الإنسان يصبح له لون مختلف ومعاني أجمل، بنفسج لقد أبدعت بوصف ما رأيت بعيون ووجوه صديقاتك لقد عبرتي بطريقة بسيطة وحلوة للسامع،

بنفسج لا أعلم ماذا علي أن أقول لك؟ فأنت سألتني عن حالي، وأنا بخير وقد صارت نفسيتي أفضل ما يكون، أعلم بأنك سوف تستغربين ما أقول فأنا سجين والسجين في بلادنا يعذب كثيرا ويرى أشياء قاسية منهكة للروح، ولكني أشعر بالأمل والتفاؤل يسكنان قلبي ويهديان روحي السلام، لا أعلم لماذا ولكن هناك شعور بالسعادة والراحة والطمأنينة يجعلني مرتاحا وكأنني على موعد غرامي، وكأني أنتظر أول لقاء مع زوجتي حين كنت ذاهبا لخطبتها، أتعلمين يا صغيرة أشعر بأن كل الراحلين ينظرون باتجاهي وهم جالسون الآن في انتظاري، فالشوق إليهم بات يقتلني ويقضي على روحي وعلى جزء كبير من قلبي، فأنا أشعر بأن اللقاء قد أقترب وموعد لم الشمل بات على بعد خطوات مني، لهذا سوف أكتب لك قصتي، فقد حان الوقت لهذا ولكم أتمنى لو تفيدك بكل ما تخططين للقيام به، وأن تكون يوما ضوء تضيء درب كل من قرر أن يسير على هذا الطريق؛ طريق الوطن وحبه.

بنفسج أنت تعلمين بالكثير مما حدث معي فبكل تأكيد أنت سمعتيه من أمين وقد كنت له دائما الظل والمرافق، كنا سويا طوال الوقت، لهذا سوف أخبرك اليوم عن كيفية أسري وكيف وقعت بين أيديهم، فبعد اعتقال أمين الوطن بشهر تقريبا كنت قد أعدت تشكيل الفرقة التي نعمل بها، وقد صار علينا أن نكون أكثر حذرا وخوفا، فأمين أعتقل ولن يكون صعبا

عليهم الوصول إلينا بعدها، لهذا قللت عدد من يعملون معي وصرت أحرص على ألا أخبرهم بالكثير من المعلومات، وأهمها مكان إقامتي، وقد كانت هذه الفترة فترة صعبة جدا، فقبل ما يقارب العام كنت قد فقدت شذا حياتي، وياسمينتي كانت تذبل يوما بعد يوم، وما أوقعني في أيديهم كان موت ابنتي، حين ذهبت في جنازتها كان عقلي مغيبا كليا، فلم أفكر كثيرا بالأمر وأن في مثل هذه المناسبة سوف يكون مكاني معروفا، ويسهل جدا القبض علي، فلم آخذ التدابير اللازمة، تم الإمساك بي وقادوني إلى السجن مانعين مني أن أقوم بواجبي الأخير تجاه ابنتي، متجاهلين حزني وألمي على رحيلها المبكر جدا، لم يرحموا حزني ولم يسمحوا لي بأن أَبكيها كما يجب، فقد كانوا يعذبوني محاولين أخذ أي معلومة قد تفيدهم، متناسين بأن الأب يشعر باليتم حين يفقد ابنته، غاضين الطرف عن انهياري وشوقي لها، مكثت في السجن المركزي لشهر كامل كان من أصعب شهور حياتي، فقد كان التعذيب بجميع أنواعه يبدأ ولا ينتهي حتى أفقد وعيي، وحين أستيقظ تبدأ رحلة التعذيب من جديد، كان الطعام هناك نادرا وقليلا، والماء يأتينا متسخا لا يكاد يروي عطش طفل صغير، كان الوضع أشبه بجهنم الحمراء، وبعد شهر تم أخذنا للسجن السياسي وهناك لم يعد أحد يعلم بحالنا ولا بوجودنا، ولم نتمكن من أن نسمع أي خبر عن أهلنا حتى يومك هذا، أتعلمين يا بنفسج! لم يكن هناك شيء قادر على أن يعيدني للحياة من جديد سوى رؤيتي لأمين، فهو قد امتص حزني واحتوى ألمي وقد شاركني العزاء وبكى معي، وكأن من رحلت ابنته أيضا لا ابنتي أنا فقط.

والآن يا رفيقة الورق أخبريني عن ذاك الحبيب السري الذي لم تخبريني عنه حتى الآن، فأنا لم أعرف حتى اسمه ولم تخبريني بالكثير عنه، أريد أن أسمع قصته وأن أعرف كل التفاصيل التي عشتماها معا، فربما أتمكن من أن أرى مالم ترينه أنت، وأفهم سبب ذاك الوجع الذي سببه لك وخلفه في قلبك، ربما ينتهي هذا الوجع حينها ويعود قلبك للنبض من جديد بحب أجمل وأقوى، إما معه أو مع غيره.

بنفسج الصغيرة سعيد أنا بالتطور الذي حصل معكِ، فكم هو جميل أن تعودي لحياتك خارج أسوار المستشفى، فيا صغيرتي عليك أن تبتعدي عن ذاك الجو الذي يؤذيك ولن ينفعك

بشيء، فأنت خلقتي لتكوني حرة كفراشة تطلق ألوانها في كل قلوب من حولها، خلقتي لتعطري أيامهم ولياليهم بوجودك فلا ترضي بأن تكوني أسيرة خوفك بعد الآن، أتعلمين! كم اتمنى لو تخبريني ذات يوم بأنك قد عدت لتنطلقي من جديد في حياتك، لتعود روحك تحلق حول أحبتها وتطير في كل أرجاء المعمورة، ولا يقف أمامك شيء أو يعيقك، وكم أتمنى حينها بأن أكون على قيد الحياة لأسمع أخبارك الجميلة والتي تشعرني بالفخر بك.

صديقتي الصغيرة كوني بخير وعودي للانطلاق، افتحي باب قفصك وأطلقي فراشاتك لتلون حياتك وحياة من حولك بكل الألوان الجميلة.

جهاد))

أيموت الحب؟

يجلسون في الزنزانة حول بعضهم على شكل دائرة كبيرة، كانوا وكأنهم يدعمون بعضهم البعض، فهناك حركة غريبة تحدث في السجن يشعرون بها ويسمعونها بحركة السجانين، ولكنهم لا يعلمون ما هو الأمر تحديدا، وكأن شيئا كبيرا سوف يحدث يجهلون ماهيته، ولكنهم يشعرون بأنه أمر سيء جدا، فهذه الحركة وتوتر الحراس الذي يصلهم من خلف الأبواب الموصدة، وأصوات همساتهم وكلامهم الذي صار كثيرا، فحتى صوت مدير السجن الذي لا يأتي إلا لأمر جلل ومهم، صاروا يسمعونه بكثرة هذه الأيام وكان حضوره يؤكد شكوكهم، حفلات التعذيب التي لم تخف فحسب بل اختفت نهائيا وكأن السجانين قد وجدوا ما يفرغون به طاقتهم بعيدا عنهم وعن التفنن بتعذيبهم، ينظرون في عيون بعضهم ويدعمون بعضهم بصمت باعثين قوة لا حدود لها من خلال عيونهم، وكلهم في رأسهم تدور نفس الفكرة هذا الهدوء هو هدوء ما قبل العاصفة، وقد حدث مرتين في السابق وكان ما بعدها أمر جلل، فالأولى وبعد كل هذا الهدوء والتوتر قد تم اغتيال العديد من المساجين عن طريق القصف العشوائي المبرمج بالطائرات لساحات السجن في ساعة التنفس، مما أدى للكثير من الضحايا وقد صارت الساحة وكأنها بحر من الدماء، أما الثانية كانت حين خرج أمين من السجن، فحين جاء أمر العفو عنه ضج السجن بالعديد من الأصوات والحركات التي لم تكن تُفهم حينها، فعلى من سوف يكون الدور هذه المرة يا ترى؟ من وسط كل هذا الضجيج الهادئ المتلف للأعصاب والأرواح، أتاهم صوت الحارس ينادي: جهاد أحمد! رسالة.

قام جهاد بهدوئه المعهود ليستلم الرسالة التي وصلته من بنفسج.

((أحببتك منذ أول نظرة

وأنا التي لم تؤمن يوما بالحب

احببتك وجعلت منك عالمي الخاص

حتى بات غيابك غروب شمس لي
فصرت لي الهواء والماء
وما عاد بمقدوري أن أتحمل غيابك
واختفيت من حياتي
كأنك فقاعة صابون طارت
حتى وقعت واختفى أثرها
أحببتك حتى صرت دنياي
وصرت الماضي والحاضر
وكم تمنيت أن تكون المستقبل
ولكنك فضلت الهروب
فضلت أن تنهي ما بيننا
بدون سبب
جعلني أتيقن أنك لم تحبني يوما
فسبب بعدك كان مؤلما
فأنا كنت أراك الحضن الآمن
الذي ألجأ إليه
ولكنك كنت اليد الغادرة
التي جمدتني بدل أن تدفئني
ليتك فقط تدرك أن كل ما قيل
وكل ما حدث ويحدث
لم يؤثر بقلبي
بمقدار تأثره ببعدك
وهجرانك لروحي
يا قاتلي اسمعني جيدا

أحببت سكينك التي طعنتني لأنها منك

وأحببت الجرح لأنه يحمل رائحتك

ليتك فقط أحببتني قليلا

بحجم الذرة أو أقل

حسام هو أول من مد لي يده مساعدا في يومي الأول من الجامعة، وقد أخبرتك عن هذا في إحدى رسائلي السابقة، بعدها صار صديقا مقربا مني يساعدني ويحميني من كل شيء، كان كالدرع يقف بمواجهة من يريد بي السوء ومن يحاول ايذائي، أتذكر بأنه ذات مرة كانت هناك فتاة سيئة جدا، ولكنها كانت كالحرباء تعرف كيف تتلون حسب المكان والحاجة، كانت قد بدأت تتقرب مني مدعية الصلاح، محاولة بكل جهدها أن تدس السم بمعسول كلامها، كانت تريد أن تجرني لعالمها؛ عالم الضياع، عالم لم أكن أعلم عنه شيئا كثيرا سوى بعض الحكايات والقصص التي كنا نقرأها ونسمعها ممن حولنا، وقد كنا نتوهم بأن هذا العالم غير حقيقي بل هو من نسيج خيال كاتب ما، يوم علم حسام بالأمر وقف بوجهها مانعا إياها من أذيتي، مثبتا لي كمية الفساد الذي يسكن روحها، وأنها ليست كما تدعي أبدا، وحين كشف أمرها وفضلت أن أقطع علاقتي بها محافظة على سمعتي وسمعة أهلي من خلفي محافظة على نقاء الياسمين المزروع في قلبي وروحي جن جنونها، وصارت تتهمني بالكثير قاذفة إياي بأبشع الصفات والكلمات، ولأني - كما كان يصفني حسام - وردة بريئة وفراشة لم تمسها النار يوما، لم أتمكن من مجابهتها أو صد محاولاتها، ولكنه هو من تدخل قائلا لي بأن هذه الأشكال تحتاج لمن يتكلم لغتهم، شخص لا تهمه الخطوط الحمراء، فهم لن يفهموا سوى هذا، وكان ما قال فعلا، فقد تعامل معها بأسلوب حازم عصبي أخاف قلبي جدا، فأنا أول مرة أرى هذا الجانب القاسي منه، حين أخبرته بأنه أخافني قال لي مازحا: لا تخافي يا مهجة القلب فطالما أنت مطيعة وجميلة هكذا لن تري مني هذا الوجه يا صغيرة، ضحك بعدها قائلا: أمامك أنا فارس بدون سيف فلا تخافي مني، فأنت بمعادلتنا أقوى مني بكثير أنت يا صغيرة تملكين السيف البتار بصوتك ونظرة بريئة من عيونك.

هذا الموقف الجميل قربني منه كثيرا بعدها، حتى أدركت بأنني أحبه جدا وكثيرا وبأنه لي الحياة، وبدأت بعدها قصة حبنا تكبر حتى صارت وكأنها قصة من وحي الخيال، كنا نقضي النهار معا والليل سويا على الهاتف، لم نكن نفترق حتى نعود لنجتمع من جديد، فقد كنا ندرس برفقة بعضنا، ونأكل مع بعضنا، ونذهب إلى أي مشوار سويا، لم يكن هناك شيء يمكنه أن يفرقنا أبدا، حتى حين ذهبت إلى سوريا، نعم كانت بيننا مسافات طويلة بحار وأنهار ويابسة، ولكننا كنا معا تجمعنا روح واحدة، كنا نعرف الخطوات التي نخطوها والنفس الذي يتنفسه الآخر، يا الله كم كنت خفيفة حين كنت معه، كانت ضحكتي لا تفارق وجهي حتى بأشد مواقفنا خلافا ومشادة، كنت أخفي الضحكة حتى لا يلمحها، كنت أحاول كبتها بيدي حتى لا يسمع صوتها فيضعف موقفي، وقد كان وحده من يتمكن من انتزاع الضحكات من روحي قائلا: لا تتكبري فمفاتيحك كلها بين يديي كما مفاتيحي بين يديك.

كنت قد أودعته قلبي ولم ولن أعيده يوما، ولكني ظننت بأن قلبه يسكن جسدي وأنه لن يفرقنا شيء مهما كان قاسيا أو مؤلما لكلينا، حتى فضل هو الابتعاد متخذا الهروب بعيدا عني على مصارعة المرض والجنون معي، لهذا خلف من بعده جسدا بلا قلب وبلا روح، خاوية بلا نبض أو حياة، أتعلم يا جهاد هو لم يترك يدي فقط، هو تركني كلي دون معالم للحياة، تركني لا أعرفني حتى أجهل كيف يمكنني أن أحيا بدونه، أو كيف علي أن أنظر للعالم بعيون لا تحمل نبضه داخل عيوني، لقد كان حسام بالنسبة لي معنى الحياة والعافية التي أحياها معه، فهو وحده من تمكن من أن يلامس كل جزء خفي في روحي، أنا التي اعتدت أن أخفي كل شيء عمن حولي كنت أمامه كطفلة صغيرة بلا حيلة، أخبره كل شيء وأضع بين يديه حتى مشاعر القلق والخوف من حبه، كنت ككتاب مفتوح لا يجيد أحد غيره قراءته، لهذا حين تركني صار قلبي خاليا من النبض وكأنه قطع عن روحي الوتين فغادرت الحياة.

يا الله! كيف لم أدرك بأنه شخص بهذا السوء؟ وأنه أبدا لن يتحمل مسؤولية كهذه؟ كيف لم أفهم أنه أجبن من أن يجابه الحياة معي ويصارعها لأجلي؟ هل حقا الحب يعمي العيون والقلوب عن كل شيء؟ هل حقا يجعلنا الحب بدون شخصية أو عقل نفكر بهما؟ ويسلب منا

إرادة للحياة؟ ما معنى أن نحب شخصا فيسكننا ونسكنه؟ ما معنى أن نشعر بأن الشمس تشرق فقط بقدوم شخص معين؟ وأنها تغيب حين يغيب عنا؟ ما معنى أن يكون هو أقرب إلينا من أنفسنا ويصير فجأة أبعد حتى من غريب لم نلتقيه أبدا؟ ما معنى إن كانت تجمعنا الصباحات به وصرنا الآن نبحث عن الصدف لنراه؟ كيف بالله يستطيع المحب أن ينظر بعيون من أحب يوما ولا يعرفه؟ ولا ينبض بقلبه شيئا مميزا؟ ولا حتى أن يرف له جفن؟ هل حقا يستطيع الإنسان نسيان من أحب يوما؟ أن ينسى من عشقه لدرجة الجنون؟ ومن عاش معه سنوات وأيام طوال؟ من كان يأكل ويشرب وينام على صوته؟ هل يستطيع الإنسان أن يخون فنجان قهوته؟ وعصرة الليمونة في فمه؟ هل يتمكن من أن ينسى حموضة البرتقال التي تشاركها يوما؟ والضحكات التي أشرقت في أرواحهم؟ غريب أمر البشر، غريب أمرهم، ما عدت أعلم إن كان العيب في أم فيهم، وقد صار صعب علي أن أدرك أكان ذاك الحبيب سيفي البتار يوما أم أنه كان خنجري الذي طعنت نفسي به؟ هل حقا يستطيع الإنسان سحق الياسمين بكل بساطة والمضي وكأن شيئا لم يكن أو يحدث؟ هل حقا نحن بهذا السوء ولم نكن نعلم؟

سحقا للحب، وبئسا لما ألت إليه حالي

جهاد سوف أقول لك شيئا، أتعلم! لم أندم إلى يومنا هذا على حبي لحسام، فهو قد جعلني أشعر بأحاسيس جميلة ومشاعر مختلفة، لهذا أنا لن أندم يوما لأني أحببته، كل ندمي كان على خياري الخاطئ، ولو عاد بي الوقت يوما للماضي لأحببته أكثر من هذا الحب، فهو وحده من خلق لقلبي ووحده من سوف يبقى داخله.

بنفسج))

تضع حقيبتها الأخيرة في السيارة وتستدير باتجاه أمها وأختها مودعة إياهما، راسمة على محياها ابتسامة صغيرة ولكنها مشرقة وحقيقية هذه المرة، احتضنت أمها هامسة في أذنها: ادعي لابنتك فطريقها صعب وطويل، طريقها شاق هذه المرة ولكنه مشرق بحبك يا حبيبة.
أجابتها أمها: رافقتك السلامة يا صغيرة قلبي، وجعل الله طريقك أخضرا مزهرا بكل جميل يا صغيرتي، فليكن ذهابك وعودتك كشربة الماء لا يعكرها شيء، وتذكري يا بنيتي بأن كل شيء مقدر لنا قبل أن نولد، ولن يحدث أي شيء إلا لسبب فلا تستسلمي أبدا.
قبلتها على جبينها واحتضنت أختها بعدها توصيها بأن تهتم بأمها وأبيها والبيت كله من بعدها، مستديرة بعدها ساحبة مجاهد إلى حضنها، مستنشقة رائحته هامسة في أذنه: أنت وطني الذي سوف يبقى هنا، انتظرني يا وطني حتى أعود إليك قريبا منتصرة أحمل في قلبي أشجار الياسمين، وفي روحي ضحكات المساجين وهم مجتمعين بأحبائهم ملوحين بحريتهم قريبا، انتظرني فالحياة ما زالت ببدايتها وعلينا أن نناضل لأجل كل شيء فيها.
بعدها صعدت في السيارة ملوحة بيدها لأسرتها ناظرة بعيون أبيها وأخيها اللذين يجلسان في المقعدين الأماميين قائله لهم: لن أوصيكم بشيء فأنتم أهل كل جميل، ولكن لا تنسوني من دعواتكم التي سوف ترافقني في رحلة العودة إلى مسقط رأسك يا أبي، وإلى ما ينتمي له دمنا ونحبه أكثر من أرواحنا يا أخي.
نظر إليها والدها عن طريق المرآة الأمامية للسيارة قائلا: يكفي أن تكوني بخير يا طفلتي ولا شيء سوف يهمني بعدها، تذكري دائما بأن قوتك تنبع من عنادك، فأنت بلا عناد لن تصلي إلى أي مكان، تمسكي بعنادك يا عنيدة فعنادك هو سر تميزك هذا.
ضحكت بنفسج قائلة: وكأن عنادي قد أخذته من مكان بعيد يا منبع العناد في عائلتنا.
ضجت السيارة بعدها بالضحك ليحل بعدها الهدوء، هناك شيء قد أخفاه أهلها عنها، وما يثير ريبتها بأن لا أحد قد عرض عليها المرافقة في رحلتها الصعبة هذه، فالكل يعلم خطورة ما هي مقدمة عليه ومع هذا لم يعرضوا حتى عرضا بأن يرافقوها، ترى ماذا يحدث بالخفاء بعيدا عن عيونها؟ هذا الشيء مع أنه أسعدها ولكنه يقلقها أيضا، فصمت والديها ورضى أخوتها على العودة للوطن وحيدة مريب جدا، وكلهم يتذكرون أخر عودة لها من الوطن

كيف كانت وحيدة محطمة، جسد خال من الروح والحياة، وصلوا إلى المطار ليودعوا بعضهم البعض، وحين همت بالمغادرة والدخول أعطاها أخوها رسالة هامسا لها:

- لا تفتحي هذا الظرف حتى تركبي الطائرة، فقط اعلمي يا أختي المحاربة بأن في هذا الظرف نجاتك من الحيرة التي تسكنك، والضياع الذي يحل في عيونك والفراغ الساكن قلبك، لا تظني صمتنا جهلا بما يدور في قلبك من أشياء، ولكن لكل شيء وقته وزمانه.

وضع بعدها قبلة على جبينها ليغادر هو وأبوها سامحين لها هي أن تتم إجراءات السفر والمعاملات كلها، وحين ركبت الطائرة وأقلعت في السماء مبتعدة رويدا رويدا عن الضباب فتحت حقيبتها مخرجة منها الرسالة التي أعطاها اياها أخوها؛ لتقرأها بهدوء باحثة عن الأجوبة التي قال لها عنها أخوها.

(بنفسجي الغالية

يا من زرعتها في قلبي فصارت حياتي كلها بلون البنفسج، يا من أشرقت في عمري وأزهرت، أرجوك لا تغلقي الرسالة وأقرأيها حتى آخرها ولك كل القرار بعدها، فأنا أعلم بأنك قد أدركت من خط يدي بأني أنا المرسل

غصة

لقد صارت قصتنا غصة

خيبة أمل جديدة

أضيفها لما سبقها

ألم تلوى إلام صرنا

أين ضاعت منا أحلامنا؟

أين سرقت ابتسامتنا؟

يا من سكنت الروح

قل لي بالله عليك

عين من أصابتنا؟

حسد من أبعد قلبينا؟

كنت لي أملا جديدا

فصرت للقلب جرحا لا يندمل

كنت فرحة طال انتظارها

فما الذي تغير؟

قلبي أم قلبك!

دموعي تستجدي يدك

تعال أمسحني

رأسي يبحث عن كتفك ليستند عليه

يداي تمتد حتى تمسكها

فأهوي في عتمة أكبر

عتمة خفت معها العمر كله

قلت يوما:

يا الله أبعد عن حياتي كل أناني

يحب نفسه وينساني

فأنا قلبي قلب طفل أحب الكل

تعلم العطاء دون مبالاة؛

يا الله لا تجعله يقسو ذات صباح

فلماذا أتيت في طريقي؟

عن أي شيء كنت تبحث عندي؟

عن قصة ناقصة؟

لن تكتمل

أم عن حب بطولي؟

لو أنك تجيبني

وتريح العقل من التفكير

فالقلب منذ زمن بات في عداد الموتى

ووحدك أنت المسؤول

هل هكذا صار حبنا يا مهجة القلب؟

هل هذه النهاية التي وصلنا إليها؟

أصار حبي قاس على قلبك؟

ينبت جرحا ودمعا بدل الفرح؟

من قال لك بأني عنك تخليت؟

وبأني تركت يدك وابتعدت؟

يا نسمتي الجميلة، يا بسمتي الفاتنة، يا ضحكتي البراقة، يا حياتي الماضية والآتية، أعذريني، أعذري قلبي وبعادي، واقبلي مني باقات من الورود العطرة تشبهك يا بنفسج القلب الحاني، اقبلي مني عشرون ألف قبلة اعتذار محمله بأطنان من الحب الذي يسكنني، مغلفة بأوراق الهوى الذي يسكن كل خلايا جسدي.

يا حبيبة القلب، أعذري ابتعاد قد أجبرت عليه، ودموع منعوني من أن أمسحها فصارت خنجرا تسكن روحي، أعذري حبا كان مكبلا بالخوف عليك بالقلق على روحك الحلوة، أعذري عيوني التي جافاها النوم شوقا للقياكِ، ومنعت من الراحة بحثا عن طيفك الحاني، أعذري هذا القلب الذي جن دوما لأجلك وقد دخل بموت سريري منذ عنه ابتعدتي، منذ حرموني لقياك والنوم بين راحات صوتك المغني، لا تديري ظهرك عني حزينة معاتبة؛ فأنا يوما لم أتخل عنك، ولم ولن أتركك في منتصف الطريق، يا مجنونتي أيترك المرء نفسه بلا معين؟ أيترك الإنسان روحه بدون حياة؟ نحن لم يفرق بيننا أحد وأنا ما ابتعدت عنك برضاي، هم من قد ألبسوني طاقية الاخفاء وجعلوني غير مرء في حياتك، منعوني من أن أظهر أمامك وقد وضعوني في الركن المعتم من أيامك، قائلين لي أبتعد عنها لتعود لك، أتركها اليوم لتحيا معك العمر كله غدا، فبنفسجتك الحبيبة قد ذبلت ووجودك سوف يمدها بثاني أكسيد الكربون حتى تموت، لهذا ابتعد ودعها تبحث عن مكان الماء والهواء وحدها، لتعود لك أجمل وأكثر بريقا، بنفسجتك الغالية منهكة وقربك سوف يكسر روحها،

لهذا أبعدوني عنك قصرا ولم يسمعوا اعتراضاتي، وأنا الذي أخبرتهم آلاف المرات كم تحتاجينني، وكم مرة على صدري أنا بكيتي وسوف تبكي، لقد قلت لهم كم تعشقين يداي وهي تداعب شعرك حتى تغطي في سبات جميل، أخبرتهم كل شيء ولم يبالوا بكلامي ولا برجاءاتي الطويلة، منعوني من الاقتراب منك أو حتى رؤيتي حولك، قالوا لي بنفسجيتك كطائر العنقاء حين تموت تلملم رمادها وحيدة وتعاود الطيران، ولكن عليها أن تعود للطيران وحيدة دون مساعدتك وبدون وجودك، فدعها تلملم شتاتها حتى لا تخسرها أو يخسرها أحد منا، هكذا سوف تعود لتواجه الدينا أقوى ومن دون جراح، سوف تعود لتنظر في عينيك بفخر وثقه، فأنت حبيبها وملاذ قلبها أنت فخرها ونقطة ثابتة بيضاء في حياتها، هي لن تسمح لك بأن تكون شاهدا على انكسارها وانهيارها، لقد أخبرني ذاك الطبيب الذي أكرهه بشدة، لأنه قد حرمني من هواء تتنفسينه، بأني إن كنت حولك في يوم انكسارك فسوف تبقين للأبد مكسورة أمامي، ولن تعود لك كما كانت وردتك البهية، لن تعود لك كما كانت، قال لي دعها تساعد نفسها على النهوض من جديد، وتلعق جراحها وحيدة دون وجودك الذي سوف يضغط عليها بشدة ويقيد حركاتها ووجعها، وبعدها سوف تعود لك لتحلق معك كالفراشات وأنا قد صدقته وسمعت كلامه مؤمنا بأنه يعلم ما هو الأفضل لك والأحسن لحالتك حتى تعودين لي نبضا يسكن كل خلايا جسدي، فها أنا ابتعدت عنك من أجلك، حرمتك مني وحرمت نفسي منك لأجل علاجك، ولم اتمنَ شيئا كما تمنيت لقياك، أتعلمين يا قطعة من قلبي يوم عرس أخي وأختك كم كان قاسيا جدا علي أن أراك ولا أصاب بالانهيار بعدها، فحبيبتي قربي وأنا لا أقوى على الاقتراب منها، لا أقوى أن أقول لها ما أجملك يا زهرتي بفستانك البنفسجي الذي قد زادك جمالا على جمال، لم أتمكن من أن أمنع عنك الأصوات التي تؤذيك والهمسات التي تجرحك وتهينك، كنت أصاب بالانهيار فحبيبة قلبي هنا نظراتها لي مسمومة تحمل في طياتها عتابا شديدا لا يتحمله قلبي، تحمل حزن لا تطيقه روحي المحبة، ومع هذا ومن أجلك أنت فقط ابتسمت وابتعدت، استنشق عبير عطرك مع الهواء المحمل منك إليَّ، أسرق صوت ضحكاتك فأضعها في قلبي محتفظا بها بعيدا عن جميع من حولي، أصورك في عقلي آلاف الصور حتى أستعيدها حين أكون وحيدا في عتمة الليل

والشوق، ومضيت من أجلك بعيدا مدعيا تجاهلي لوجودك، أتعلمين ماذا حصل بقلبي اليوم عندما هاتفني الطبيب ليخبرني بأنه قد صار بإمكاني أن أعود قائلا لي: عد إليها الآن فهي بانتظارك، عد الآن وخذ بيدها للطريق الصحيح، خذها نحو السعادة ودعها هناك تحيا كل أيامها، إنها تستحق أكثر من هذا، تستحق كل شيء جميل فهي محاربة قوية لا تخاف شيئا، ولا تتردد أبدا بخوض الحروب والانتصار فيها أيضا.

حينها وقفت حائرا كيف أعتذر وأقدم حبي وإخلاصي، فلم أجد طريقة أعبر بها عن كل هذا، وعن أسبابي التي أبعدتني عنك سوى هذه الرسالة التي أعطيتها لأخيك لأني لم أعد أحتمل بعدا لوجهك الرقيق عني، طالبا منه ومن أهلك بأن يسمحوا لي بمرافقتك في طريقك هذا، فأكون لك السند والدعم الذي تحتاجينه.

بنفسجي الغالي اشتقت لعبيرك الفواح، فلا تطيلي الغياب عن حبيبك الملتاع، فإن قراءتي رسالتي ورضيتي أن تتكرمي على روحي بالمسامحة فانظري خلفك سوف ترينني أنتظرك على أحر من الجمر،

حسامك الذي سوف تحاربين به بعد الآن)

أغلقت الرسالة ناظرة إلى الوراء لتراه كما كان دوما مبتسما وفي عيونه قلق وترقب، نظرت إليه وقلبها يخفق بشده مبتسمة ليصله الرد، لقد سامحته وعاد ربيع حبهما من جديد، لقد فهمته الآن وعذرته على كل شيء حدث، نعم لقد كان مع الطبيب حق هي لن تحتمل أن يراها حبيبها وهي بحالتها تلك، وهي منهارة تحاول أن تحبو لتجد الطريق الصحيح الذي سوف تصل إليه.

حين وصلت إلى المطار نظرت إلى حسام قائلة له: علينا أن نذهب إلى الفندق أولا لنضع امتعتنا متوجهين بعدها بسرعة إلى السجن، فأنا أحمل موافقة على لقاء بقايا زوايا المربع الحبيب.

انطلقوا بعدها على عجل ليصلوا إلى السجن يرافقها إحساس خفي بأن هناك شيء سوف يحدث يقلب موازين اللعبة، وهناك حين كانت تدخل هي من باب السجن كان يخرج من الباب الثاني ثلاث جثث يحملها العساكر في السيارة، ثلاث توابيت على شكل مربع ينقصه

الزاوية الأخيرة يحملونهم متجهين بهم بعيدا، وقفت بنفسج تنظر إليهم وفي قلبها شيء يخفق بشدة، وكأنها تنظر الآن إلى نعش خالها الذي وارته هي بالتراب منذ أكثر من عام، كان هناك خوف في قلبها وشعور غريب يسكن روحها، لهذا بقيت واقفه تنظر للسيارات وهي تحمل الجثامين الثلاثة مبتعدة حتى اختفوا عن ناظريها، فاتجهت إلى السجن وهي تخشى من القادم، تشعر بأن هناك خبرا سيئا سوف تسمعه الآن تخاطب نفسها: يوما حملت جثمانك يا خالي إلى مثواك الأخير، ولا أعلم لماذا أشعر بأني سوف أحمل جثمان زوايا مربعك الذي كنت تتحدث عنه دائما بفخر، أشعر بأنهم سوف يرقدون في جوارك اليوم فيكون لقائكم كما حلمتم دوما، ولكن لن يكون على الأرض بل في السماء، لن أكون شاهدة عليه كما كنت تخطط دائما.

حين دخلا إلى مدير السجن وضعا أمامه رسالة من الأمم المتحدة وموافقة من حقوق الإنسان وتوصية من الهلال والصليب الأحمر للقاء كل من جهاد وحسن وعادل، وموافقة أمنية من إدارة السجون والمخابرات كانت تحمل كل ما يجعل الأمر سهلا لها وصعبا على مدير السجن رفضه، فهي لا تريد أي شيء يعيق لقائها هذا.

نظر إليهم المدير في هدوء مستفز قائلا: لقد تأخرتي قليلا أيتها المناضلة الصغيرة، يا من تظنين بأنك تملكين القوة ببعض ورق، فللأسف في هذا الصباح اكتشفنا بأن ثلاثتهم قد ناموا مساء الأمس نومتهم الأخيرة ولم يستيقظوا منها ولن يستيقظوا أبدا، وقد حملنا جثثهم بالسيارة قبل قليل إلى الطبيب الشرعي ليكتب سبب الوفاة، وبعدها ندفنهم في مزبلة التاريخ، فهم مثلك ومثل خالك خونة للوطن عملاء للقوة الخارجية.

نظرت بنفسج له بصدمة قاسية قائلة: ما الذي تقوله يا هذا، كيف حدث هذا؟ هل ماتوا ثلاثتهم بنفس الليلة؟ هل تمزح معنا أم أن هناك أمرا تحاول أن تخفيه بعيدا عنا؟

لوح لها بيده لتسكت قائلا لها: لن أجادلك يا فتاة هيا إذهبي من هنا فلا شيء سوف تحصلين عليه مني سوى هذه الرسالة التي كتبها بطلك قبل أن يموت ويريحنا منه، هيا الآن غادروا دون ضجيج حتى لا أضعكم مكانهم بالسجن ولن يعلم عنكم أحد بعدها شيئا، فهل تظنين حقا بأنك تملكين حصانة بهذه الأوراق والقضايا التي أثرتيها ضدنا من أجل خالك ومن بعدها

من أجل رسائلك الغبية هذه؟ نحن من سمح لرسائلك تلك بالدخول والخروج من سجننا فاصمتي الآن وغادري دون أن تحدثي ضجة، وإلا أقوم بما حلمت به دائما وأضعك في السجن لأخرس صوتك المزعج هذا.

مسكها حسام من كتفها ساحبا الرسالة من يد مدير السجن ليسحب بعدها بنفسج إلى الخارج طالبا منها الهدوء وعدم البكاء الآن، فهو يخشى عليها من انهيار أمام شخص سيء جدا كهذا، لا يحمل في قلبه ذرة رحمة أو شفقة.

نظرت له بنفسج بعيون تحمل الكثير من الضعف واليأس، عيون مليئة بدموع ترفض الخروج لهذا العالم قائلة: كيف رحلوا الآن؟ كيف رحلوا دون أن أراهم؟ كيف رحلوا دون وداع؟ كنت أحلم بأن يعودوا لبيوتهم سالمين، ماذا أفعل الآن؟ قل لي هل هذا وطن بحق؟ هل على الوطن أن يأخذ كل شبابنا مستمتعا بدمائهم التي تسيل عليه؟ ألم يكتفي بدموعنا؟ ألم يكفيه كل هذا الوجع والألم الذي عشناه على أرضه؟ أكتب علينا أن نموت ألف مرة ومرة بسبب الوطن ومن أجله؟ سحقا لأوطاننا يا حسام فهي تعرف فقط كيف تكسرنا، وتتفنن بإيذائنا، سحقا لأوطاننا التي كتب عليها أن تسرق منا الحياة مرة بعد مرة، وأن تذيقنا سم الفراق في كل منعطفات حياتنا.

حضنها حسام إلى قلبه قائلا لها: تمهلي يا بنفسج فالوطن يحتاج منا الصبر والنضال، تمهلي ولا تستسلمي الآن، ما زال لديك الكثير لتفعليه لأجل وطنك وأحبابك، هيا يا صغيرتي تماسكي حتى نذهب إلى المستشفى فنستلم جثامينهم وندفنهم كما يليق بأبطال الوطن أن يدفنوا، دعينا نقوم بآخر مهمة لنا معهم، وبعدها سوف نناضل من أجل أوطاننا، هيا يا حلوتي لا تستسلمي الآن أبدا.

نهضت بنفسج بهدوء ماسحة دموعها من عيونها، تبرق في روحها عزيمة وإصرار جعلا قلب حسام يرفرف سعادة وهي تقول: هل ما زال هناك وطن بالأصل؟ سوف أقوم بما كتب علي اتجاه أحباب خالي الحبيب، وبعدها سوف أجعل من هذا الوطن مقبرة لكل عميل خائن فرط بأرواح شبابنا، فرط بأرواح زوايا مربع الوطن الحبيب.

عادوا إلى السيارة لتأخذ بنفسج الرسالة من حسام وتقرأها:

(بنفسج صغيرتي الحبيبة

يا روح الوطن، يا سمائه وأرضه، يا أمله الذي يسكن فينا، يا من زرعتي في قلوبنا الأمل وعرفتي كيف تعيدي إلينا الحياة، يا من وضعك الله في طريقي لأعلم بأن الحياة ما زالت بخير وأن هناك قلوبا ما زالت تفكر بالوطن وتتمنى له الأفضل على الدوام، شكرا لك على كل ما قدمته لنا، وعلى كل ما أعطيتني من لحظات لا تنسى أو تعوض، معك أنت فقط شعرت بحلاوة الأيام من جديد، فشكرا لك وشكرا لمن ربَّى قلبك هذا، وشكرا لأمين الوطن أخي وصديقي ورفيق دربي لأنه خلف من بعده بطلة مثلك.

لا أعلم لماذا ولكن ينتابني شعور قوي بأن هذه هي رسالتي الأخيرة لك يا بنفسج، وأن هذه الحروف التي ترينها أخر ما سوف أكتبه في هذه الدنيا وسوف أغادرها بدون عودة، لهذا لا تحزني يا صغيرتي ولا تذرفي الدموع من بعدي بل كوني كما أنت دوما محاربة لا تستسلم ولا تسمح للأشرار بالانتصار، دعيهم يفوزوا هذه المرة، ولكن لتكن الأخيرة أرجوك ليكن هذا انتصارهم الأخير.

أتعلمين يا بنفسج! هناك حركة مريبة في ممرات السجن، وكأن هناك شيئا جللا سوف يحدث لا نعلم ماهيته، ولكنه سوف يكون صعبا وقاسيا، فهذه الحالة من الضوضاء والتوتر الذي نشعره في ممرات السجن قد عشناها مرتين سابقا، الأولى حين أبادوا الكثير من السجناء، والثانية حين أفرجوا عن أمين الوطن، وهذه الثالثة وهذه المرة أشعر بأن الموت يقترب مني جدا، لهذا سوف أقول لك شيئا مهما، هذا الوطن قد ضحى بالكثير وأعطى الكثير من أجل شبابه ومن يسكن عليه، ولكن الخونة ومن يريدون به السوء لا يتركوه من شرورهم فيعيثون به فسادا، فهم يعلمون كيف يؤذونه ويؤذون كل من يسكن على أرضه ويحمل في دمائه شيئا منه، وفي قلبه حبه وهواه، لهذا سوف يحاول دوما من يريدون الشر للوطن بأن يؤذونك ويحبطونك، ويجعلوا الأمر ضيقا عليك لا يطاق، حتى تستسلمي وتبتعدي عن الوطن وعن أي شيء يخصه، ولكن إياك أن تستسلمي وتسمحي لهم بأن يقتلوا روحك المناضلة المحبة لكل شيء يخص الوطن، إياك يا من جبلتي على المناضلة لأجل وطنك الحبيب أن تعلني انهزامك واستسلامك أمام ما يحصل وقد يحصل في المستقبل،

فإن هُزمتي أنت فلن يعود هناك وطن نقاتل من أجله، بل سوف نخسره كما خسرنا كل جميل، وسوف يصبح هذا الوطن يا صغيرة سجن يعاث به فسادا دون أن يسمع أحدا، فيصير مقبرة لكل من يحيا عليه، بنفسج إن وصلتك هذه الرسالة وتأكدتي من رحيلي فلا تقفي عاجزة شاعرة بأنك مهزومة، فأنت منتصرة بثباتك ونضالك اللذين لم يهدمهما حتى ذاك الجنون الذي تدعينه.

بنفسج دعيني أكتب لك وصيتي الآن، وصيتي لكل الشعوب العربية حاولي جهدك بأن تصل للجميع:

يا أيها الشعب الذي جبل على الهزائم وعلى الانتكاسات الكبيرة، وعلى الانتصارات المزعومة والخطابات القوية الفارغة من المضمون والمعنى، أيها الجيل الذي تربى على الصمت ومقولة الجدران لها أذان، ليكن لها مئة أو ألف أذن فما المهم إن لم يكن لها أفواه تتحدث؟ أيها الجيل الذي تعلَّم أن يموت بصمت دون أن يحدث أي ضجيج ودون أن يزعج أحدا، أتعلم ما هي مشكلتكم؟ مشكلتكم أنكم ورثتم كل هذا عن آبائكم دون أن تفكروا بتغيير شيء، أو أن تبدلوا شيئا، دون أن تفكروا أن تثوروا على أي شيء، نحن من الجيل الذي بقي بالمنتصف، جيل حاول جاهدا أن يثور عما ورثه وعاشه منذ الصغر، ولكنه لم يجد من يتحمل ثورته ومن يسمع له فقتلوه دون أن يرف لهم جفن، أو يفكروا بما سوف يحدث لهم، أغلقوا فمه وكموه بأشد أنواع التكميم قسوة، أتعلم يا أيها الجيل القادم يا مستقبل الوطن! أنتم نار الثورة، أنتم الوقود الذي نحتاجه لننتصر على من هزمنا يوما وقتلنا أياما وليال، أتعلم أيها الجيل القادم! يا شبابنا الصغير المقدام، لم يعد هناك شيء يقال بعد كل ما قيل، فشخص أضاع نصف عمره أو أكثر بين جدران خرساء باردة لا روح فيها لن يتمكن من أن يقول لكم انسوا الوطن وعيشوا ليومكم ودنياكم، فقط انسوا كل ما يحصل على أرض أوطاننا، وعيشوا مرتاحين البال ولكن بكل تأكيد هذا الكلام لن تسمعوه مني، فأنا منذ صغري أرفع راية الثورة، حتى وأنا مكبل في السجون المعتمة وفي يدي قيود من فولاذ لم أتوقف عن الثورة وعن القتال لأجل الوطن، لهذا افعلوا كل ما بيدكم ليعود الوطن مشرقا، ليعود الياسمين منتشرا في النيل والعاصي والفرات، غارفا من جمال العسل الذي يسكن اليمن،

متنعما بجمال التراث الذي يسكن البتراء ووادي قاديشا، أعيدوا لنا أمجادنا الذي سرقوها منا، أعيدوا لنا حضارتنا التي دمروها بأيدي الطغاة، أعيدوا لنا الحياة".

بنفسج إلى هنا تنتهي وصيتي لكل الشعوب العربية، أما بعد الآن فهو موجه لك أنت يا ذات القلب الراقي الحنون، يا من جبلتي على العطاء والمحبة سوف أقول لك كوني لوطنك فخرا ولمن بعدك قدوة، احتضني ابن أمين وازرعي فيه كل ما يعيده يوما لوطنه الحبيب، يعيده له حتى يبعد عنه الشر والأشرار، يبعد عنه يد الخونة المخربة لكل جمال العالم من حولك، قولي له بأن والده يوما ما كان صغيرا، كان يرضع مع حليب أمه حروف الوطن، وكان أول ما قاله كلمة وطن لهذا يوم كبر صار بطلا للوطن، قولي لجهاد بأنني أحببته حتى لو لم أره، وسوف أكون به فخورا لأنه يحمل من دماء أمين وجيناتك القوية المثابرة على الدوام، قولي لجهاد ومجاهد بأنهم أملنا القادم، فليكونوا كما نتمنى بل أفضل مما كنا نحن حتى.

بنفسج الصغيرة لقد عانيت الكثير ورأيت من أهوال الحياة ما يكفي قلبك الصغير تمسكي بالأمل الذي سوف يمد لك يده قريبا وضعيه في صندوق قلبك الأبيض ليزهر دوما، تمسك باليد التي تعطيك كل الخير، فحسام لم يكن يوما ممن يريدون لك الضرر، فمن كلامك عنه ووصفك الذي لم ينته بآخر رسائلك سوف أقول لك بأنه ينتظر الفرصة ليأتي إليك من جديد، فهو سيفك البتار الذي سوف تحاربين به كل من يريد بالوطن الشرور، فلا تبتعدي عنه حين يمد لك يده، ولا تقولي يوما بأنه قد تخلى عني، بل اسمعي له وخذي اعذاره بقلبك لا بعقلك، فهو سوف يأتي محملا بالياسمين ليقول لك بأنه يحبك ويهواك وعلى العهد هو باق للأبد.

بنفسج كوني بخير فهذه أخر الحروف التي سوف ترينها مني، وثقي بأنك قد جعلتي لحياتي نورا لم أتخيل بأني سوف أجده وأنا بين عتمة السجن أحيا.

جهاد))

أغلقت الرسالة لتضع رأسها على كتف حسام هامسة له: لقد كان يعلم لقد كان يعلم في حين جهلت أنا، فاعذر سوء ظني يا حبيبي، أعذر قسوة كلماتي وشكي بحبك، يا من علمتني كيف يكون الحب بأعلى مراتب التضحية.

نهاية البداية

دخلا إلى المستشفى باحثين عن الطبيب الشرعي، محاولين بكل جهد أن يودعوا جثامين الراحلين حتى لو لم يتمكنوا من أن يروهم وهم على قيد الحياة، سوف يودعوا جثامينهم بكل حب وإخلاص، دخلت بعجلة تحمل في يدها أوراقا رابحة من عضوية حقوق الإنسان إلى خطابات ورسائل وتوصيات من أكثر من مكان في العالم، كل هذا فعلته وفي قلبها أمل أن تخرجهم إلى حرية الدنيا، والآن أملها بأن تضعهم في قبر يليق بهم كما كان يحلم خالها أمين، أن تكون قبورهم قرب بعضهم البعض وعلى شكل مربع؛ حتى يعلم كل العالم بأن هذا المربع بزواياه المناضلة صامد حتى بعد رحيله، وليكونوا درسا وعبرة وقدوة لكل من يأتي من بعدهم في الحياة، سحبت الطبيب من رقبته صارخة به: لا أريد تقريرك المزيف الذي سوف تعطيه لحراس السجن حتى يسمحوا بدفنهم، أريد التقرير الذي وضعته تحت الطاولة، إما أن تقدمه الآن أو تقدمه في المحكمة مرغما لا مخيرا حين تجد نفسك تجلس مكان من رحلوا وتزيف حقيقة موتهم.

صرخ فيها الطبيب الشرعي: لا شيء عندي مخفي، إن لم تصدقي هذا فهذه مشكلتك وإن كان عندك شيء فاذهبي إلى مدير المستشفى ليؤكد لك ما أقول.

همت بالذهاب وهي تقول مخاطبة حسام: هيا يا حسام فهناك من يريد أن يخسر عمله وحريته، فهو لا يريد أن يتعاون معنا وأنت تعلم بأن تقريرا واحدا لحقوق الإنسان ربما تخسره حتى رخصته التي يتباها بها.

تمسك بها الطبيب قائلا: انتظري يا فتاة، سوف أعطيك ما تريدين بشرط واحد، أنظري إليه وأعيديه بسرعة، لا أريد مشاكل مع الدولة أرجوك، فأنا عبدٌ مأمورٌ لا أملك من أمري شيئا، وفي رقبتي عائلة تراقب الطريق كل يوم بأمل أن أحمل معي شيئا يسد رمق جوعهم وعطشهم.

أمسكت التقرير الثاني لتتأكد من شكوكها، فلقد تم حقنهم بإبر سامة تقتل ببطء، وتوحي لمن حولهم بأنهم ماتوا بسبب سكتة قلبية، أو بسبب توقف القلب ولا أحد له يد بموتهم، نظرت إلى حسام الذي فهم عليها ما تود فعله، وصار يتحدث مع الطبيب حتى يلهيه عما تقوم به بنفسج وهي تلتقط عدة صور للتقارير، فحتى لو رحلوا هناك العديد من أمثالهم بالسجون يحتاجون للحرية، فعسى أن يكون رحيلهم هذا هو المفتاح لخروج المنسيين في عتمات السجون، فهل هناك أجمل من أن يهبوا الحياة بموتهم أيضا؟

خرجت بعدها بنفسج لتكمل إجراءات استلام الجثامين ودفنهم، وكان الشرط أن يقوموا بالدفن دون أن يخرج معهم أحد وأن يكون في عتمة الليل، وقد كان هذا لصالح بنفسج وخطتها التي وضعتها، لهذا اتصلت بوالدها تخبره بكل شيء وتقول له بهمس، لقد رحل حسن يا أبي ولم أقدر على فعل شيء له، رحل حسن وجهاد وعادل كما رحل أمين، أبلغ أهله بأن ابنهم قد رحل، قل لهم بأنه رحل بطلا وسوف يخلد التاريخ ذكراه دائما، قل لكل العالم من حولك بأن رحيلهم لن يغير شيئا، فهم أمل الوطن وسوف يبقون كما كانوا.

أبلغت بنفسج العديد من القنوات الأجنبية والمعارضة للحكومات العربية بما يحدث هنا في الخفاء، وقد دعت العديد من الأشخاص سرا ليتواجدوا بالمقبرة ساعة الدفن، وكان هناك العديد من عدسات الكاميرات والصحافة الذين تسللوا خفية إلى المقبرة في جنح الليل المظلم ليكونوا شهداء على هذه الجريمة البشعة، وبعد أن وضعوهم في القبور جهاد بجانب أمين، وحسن وعادل في القبرين المقابلين، فصاروا على شكل مربع صغير وقفت بنفسج تلقي خطابا بأرواحهم الأربعة:

" لقد عشتم سويا ومتم سويا وتركتم لنا وطنا لا نعلم ماذا نفعل له ومعه؟ وماذا نقدم له؟ وكيف نوقفه حتى لا يأخذ منا أرواحا نحبها ونهواها، لقد رحلتم يا أحباب الوطن ودفنتم في تراب الوطن الذي رفضكم وأنتم أحياء، وأبعدكم عنه وأنتم تتنفسون، ليكن مصيركم أن تدفنوا في ترابه، فيا ترى نحن من لم نعرف الوطن يوما ولم يعرفنا هو حتى؟ هل سوف يقبل بأن يدفننا في ترابه حين نغادر هذه الحياة؟ حين نصحوا يوما فنجد أنفسنا على مشارف الموت؟ هل سوف يتعرف علينا هذا الوطن الغادر الذي سرقكم منا كما سرق العديد والعديد

من الأرواح السابقة؟ وما زال سوف يأخذ العديد من الأرواح بعد، سحقا يا وطننا ما أقساك سحقا لحبك يا وطن".

وعلقت بعدها على قبرهم شاهده مكتوب عليها:

أيا وطنا غارت منك كل بقاع الأرض

لا تخفض رأسك فأنت اليوم بأبهى مظهر

وكتبت تحتها أساميهم

غادرت المقبرة متجهة إلى الفندق الذي تنتظرها صديقتها فيه لتعطيها جهاد ابن خالها وتغادر بعدها للمطار، فما عاد هنا شيء يبقيها ولا دافعا لتقول شيئا أو تفعل شيئا لهذا الوطن، فقد نشرت كل ما حصل مع جهاد وحسن وعادل في كل الصحف والقنوات التلفازية، وقد صارت قصتهم تحكى في كل مكان وزمان، لقد فعلت كل ما عليها فعله الآن وقد حان موعد المغادرة فما عاد هناك شيء يبقيها في وطن تفنن بسرقة كل جميل من حياتها.

عندما ركبت الطائرة وفي حضنها جهاد وعلى يسارها حسام نظرت لأرض الوطن وهي تبتعد عنها رويدا رويدا، ثم نظرت لجهاد لتهمس له: حملت لك من الياسمين حتى أزرعه يوما في روحك فينبت ضبابا بعبق الياسمين، فنحن كتب علينا أن نعيش الغربة في الوطن وبعيدا عنه، فأي وطن هذا الذي يسرق منا كل غال وعزيز؟ يهدينا كل يوم وجع جديد، ولا يعرف معنى الابتسامة والفرح، ويح وطننا تفنن بقتل محبيه بدل أن يقتل كل خائن بائع للضمير.

ومن بعيد من ماض كان خالها فيه موجودا سمعت صوته وهو يغني:

البحر غضبان ما بيضحكش

أصل الحكاية ما تضحكش

البحر جرحه ما بيدبلش

وجرحنا ولا عمره دبل

مساكين بنضحك من البلوة

زي الديوك و الروح حلوة

سرقاها من السكين حموة

و لسة جوا القلب أمل

النـهاية

الفهرس

المقدمة 7
بداية النهاية 12
أشواق ينقصها العزم 19
ما الجديد؟ 36
الأمل بين الألم يسكن 48
ربما... علاجك دوائي 58
أمين الوطن 65
وردة مليئة بالأشواك 84
وانتصر الشوق 95
ولدت من جديد 104
أيموت الحب؟ 117
نهاية البداية 134

للنشر والتوزيع